هذا هو الإسلام
(٢)

• السماحة الإسلامية
• حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(٢)

* السماحة الإسلامية

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦ هـ ـــ ديسمبر ٢٠٠٥ م



٩ شارع السعادة . أبراج عثمان . روكسى . القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(٢)

* السماحة الإسلامية

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

الفهرس

السماحة الإسلامية

- ١ -

السماحة: منهاج

إن السماحة - التى تعنى: المساهلة واللين فى المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة - فى النسق الإسلامى - ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة، كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية، يمنحها حاكم ويمنعها آخر.. وإنما هى دين مقدس، ووحى إلهى.. وبيان نبوى لهذا الوحى الإلهى.. وتجسيد وتطبيق لهذا الدين فى دولة النبوة [١ - ١١هـ ٦٢٢ - ٦٣٢م] وفى دولة الخلافة الراشدة [١١ - ٤١هـ ٦٣٢ - ٦٦١م].. وفى التاريخ الحضارى للشرق الإسلامى منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات..

بل، لأن هذه السماحة هى ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

ـ ٢ ـ

التأسيس القرآنى للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس للسماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود.

ففى هذا الوجود هناك: «حق» هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ و«خلق»، يشمل جميع عوالم المخلوقات.. هناك: «واجب الوجود»، وهناك «الوجود» المخلوق «لواجب الوجود».. وفى هذا التصور الفلسفى الإسلامى تكون «الواحدية والأحدية» فقط للحق.. لله ـ سبحانه وتعالى.. واجب الوجود... بينما تقوم كل عوالم الخلق ـ المادية.. والنباتية.. والحيوانية.. والإنسانية.. والفكرية ـ أى كل ما عدا الذات الإلهية ومن عدا الذات الإلهية على التعدد، والتنوع، والتمايز، والاختلاف.. باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًا، وسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذى يستلزم ـ لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة ـ تعايش كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق.. أى سيادة خُلق السماحة فى العلاقات بين الأمم والشعوب، والثقافات، والحضارات، والمذاهب، والفلسفات، والشرائع، والملل، والديانات، والأجناس، والألوان، واللغات، والقوميات.. فبدون السماحة يحل «الصراع» ـ الذى ينهى ويلغى ويفنى التعددية ـ محل التعايش والتعارف.. الأمر الذى يصادم سنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات..

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه فى السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذى أراده الله.

وفى التأسيس القرآنى لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود، نقرأ فى آيات الذكر الحكيم:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣].. فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل.. والسماحة هى السبيل إلى تعايشها وتعارفها فى الإطار الإنسانى العام..

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها - ومن ثم قومياتها - كآية من آيات الله ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢].. والسماحة هى السبيل لتعايش الأجناس والقوميات فى إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنة من سنن الابتلاء والاختبار الإلهى لهذه الأمم والشعوب.. وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفى ميادين الخيرات ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] - والمفسرون لهذه الآيات يقولون عن هذا الاختلاف وذلك التنوع وتلك التعددية فى الشرائع والمناهج والثقافات والحضارات، إنها علة الخلق.. وأن المعنى: «وللاختلاف خلقهم»[١].

وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التى هى علة الوجود، وسر التسابق فى عمران هذا الوجود.

وانطلاقًا من هذا الموقف القرآنى، الذى جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًا، كان «العدل» - الذى هو معيار النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية - هو أساس السماحة الإسلامية فى التعامل مع كل الفرقاء المختلفين.. ففى التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات.. ذلك ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء: ٩٧].

ويطلب منا العدل مع الآخر ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾

[الأنعام: ١٥٢].

بل ويوجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا العدل حتى مع من نكره ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [المائدة: ٨]، ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ [المائدة: ٢].

بل ويوجب القرآن علينا العدل حتى مع من يعتدى علينا ويقاتلنا ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤].

إن الإسلام، لأنه دين ودولة، وأمة وجماعة، ونظام واجتماع، ليس الدين الذى يخلو من القانون ومن السلطة التى تعاقب المعتدين، وتدين الجناة.. ومع ذلك، فإن سماحته تدعو إلى العدل في رد العدوان وإنزال العقاب والجزاء، بل وتفضل الصبر الجميل على رد العقاب ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾

[النحل: ١٢٥ـ١٢٨].

كذلك، يوجب الإسلام علينا العدل فى النظر إلى المخالفين لنا فى الاعتقاد ـ الذى هو سنة إلهية ـ ونحن مدعوون ـ وفق منهاج القرآن ـ ألا نضع كل المخالفين لنا فى سلة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذى يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء

المخالفين ومواقفهم. . وإقامة لهذا المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبدًا فى حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[آل عمران: ٧٥].

فالقاعدة القرآنية الحاكمة فى التمييز ـ العادل ـ بين الفرقاء المخالفين لنا هى أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣] ـ صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود، فلم يعمم فى الحكم على مجموعهم. . وصنع ذلك أيضًا فى الحديث عن النصارى، عندما ميز بين من هم أقرب مودة للمسلمين ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ـ٨٥].

لقد صنعوا ذلك وهم نصارى، ولصنيعهم هذا لم يحبط الإسلام عملهم، ولم يضعهم فى سلة الآخرين ـ من النصارى ـ الذين أشركوا المسيح مع الله فى الألوهية والربوبية والخلق، فكفروا بالوحدانية التى جاء بها المسيح ﷺ، عندما قالوا: «إن المسيح هو خالق كل الأشياء. . وإن كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان، فهو الأول والآخر»! ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

فلم يسوِّ القرآن الكريم بين هؤلاء الفرقاء من النصارى. .

والمنطلق الإسلامى لهذا التمييز ـ المؤسس للعدل والسماحة ـ هو العدل الإلهى الذى هو فريضة إسلامية جامعة. . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ رب العالمين جميعًا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ـ وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. . والتكريم الإلهى شامل لكل بنى آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. . ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، وليس معيار التفاضل لونًا أو جنسًا أو سلالة، أو أية صفة من الصفات اللصيقة التى تستعصى على الاختيار والكسب والتغيير. . ولذلك، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وتأسيسًا على هذا العدل الإلهى، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام فى النظر إلى مواريث النبوات والرسالات التى سبقت رسالة رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ. . فالقرآن الكريم لم يأت نافيًا لما سبقه من كتب، وإنما جاء مصدقًا لها، ومهيمنًا عليها، أى مشتملاً على ثوابتها ومستوعبًا لأركان العقائد فيها، ومضيفًا إليها، ومصححًا لما طرأ عليها. . فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية. . وكانت النصرانية تنكر اليهودية ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]، جاء القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، ومؤكدًا على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هدى ونور ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢ ـ ٤]، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وكذلك

الإنجيل ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٦] ـ بل وطلب الإسلام من أهل الكتاب تحكيم كتبهم، ولم يطلب منهم نبذها ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ [المائدة: ٤٣].

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، كقانون تكويني ـ أزلي أبدي ـ الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

***

ـ ٣ ـ

التطبيق النبوى للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التى جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾

[البقرة: ٢٨٥]..

ولأن السنة النبوية هى التطبيق النبوى للبلاغ القرآنى، رأينا احتفاء رسول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء.. فالوحى الذى جاء به فى عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحى الذى أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

وانطلاقًا من هذا البلاغ القرآنى جاء التطبيق النبوى الذى يحتضن ـ بالإيمان ـ كل الرسل والأنبياء.. فهم جميعًا أبناء دين واحد، وشرائعهم ـ أمهاتهم ـ شتى: «**الأنبياء إخوة من علاَّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد**» ـ رواه البخارى ومسلم وأبو داود..

ولذلك، خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: «**نحن أحق وأولى بموسى منكم**» ـ رواه البخارى ومسلم ـ وقال عن عيسى عليه السلام: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة**». قالوا: كيف يا رسول الله؟.. قال: «**الأنبياء إخوة من عَلاَّت، وأمهاهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبى**» ـ رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد.

وإبراهيم ﷺ هو أبو الأنبياء، الذى أقام مع إسماعيل ﷺ قواعد البيت الحرام ليكون حرمًا آمنًا وقبلة دائمة لأمة خاتم الأنبياء، الذى أحيت شريعته مناسك ملة إبراهيم، وحنيفيته السمحة، التى تأسست عليها سماحة الإسلام: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وفى أحاديث رسول الله ﷺ عن هذه السماحة، التى جسّدها الإسلام، نقرأ: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**» ـ رواه البخارى والإمام أحمد ـ «**وأنى أرسلت بحنيفية سمحة**» ـ رواه الإمام أحمد ـ . . و«**دخل رجل الجنة بسماحته**» ـ رواه الإمام أحمد، و«**إن الله يحب سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء**» ـ رواه الترمذى.

ولم يقف هذا التطبيق النبوى للسماحة القرآنية عند حدود السنة القولية، بل تحولت هذه السماحة ـ فى التطبيق النبوى ـ إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّنها وقعدها دستور دولة النبوة ـ فى المدينة المنورة ـ وفى العهود والمواثيق التى قطعها وكتبها رسول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففى دستور دولة المدينة ـ الصحيفة. . الكتاب ـ أصبح الآخر الدينى ـ اليهود ـ جزءًا من الذات ـ ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة ـ مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام!! . . ونص هذا الدستور على أن «**لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم . . وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربينَ، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه**»[٢].

وعندما جاء وفد نصارى نجران سنة ١٠هـ سنة ٦٣١م إلى مدينة رسول الله ﷺ فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، مولين وجوههم إلى المشرق . . ثم تركهم وما يدينون[٣] . . وعقد لهم عهدًا عامًا دائمًا، لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان . . ولقد جاء فى هذا الدستور الذى تفردت به سماحة الإسلام دون كل الأنساق الفكرية والمواثيق الدستورية:

«ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يُغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا.. بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى..

ولا يُحملون من النكاح - [الزواج] - شططًا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا فى ذلك إن منعوا خاطبًا وأبوا تزويجًا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به.

وإذا صارت النصرانية عند المسلم - [زوجة] - فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شىء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

ولهم - [أى النصارى] - إن احتاجوا فى مرمّة بيعهم وصوامعهم أو شىء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رفد - [مساعده] - من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويُعَاوَنوا، ولا يكون ذلك دينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنة لله ورسوله عليهم.

.. لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذى استوجبوا حق الزمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يُذبّ عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم.

واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا - [يساعدوا] - أحدًا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم.

وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم..»[٤].

وعندما ذهب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة [٣٥ ق هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] حاملاً رسالة رسول الله ﷺ إلى المقوقس - عظيم القبط - بمصر [سنة ٧هـ سنة ٦٢٨م]، تجلت هذه السماحة الإسلامية في عبارات حاطب التي أعلنها أمام المقوقس، عندما قال له:

«إن لك دينًا - [أي النصرانية] - لن تدعه إلا إلى ما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا لك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به..»[٥].

❊❊❊

- ٤ -

وفى الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية - التى أقامت «الدولة» . . وتركت الناس أحرارًا فى «الدين» . . فرأينا أبا بكر الصديق [٥١ق هـ - ١٣هـ ٥٧٣ - ٦٣٤م] يوصى أمير الجيش الذاهب إلى الشام «يزيد بن أبى سفيان» [١٨هـ ٦٣٩م] : «إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له» - رواه مالك فى الموطأ .

ووجدنا الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ق هـ - ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤م] يكتب عهد الأمان - «العهد العمرى» - لأهل القدس - «إيليا» - عند فتحها سنة ١٥ هـ سنة ٦٣٥م - الذى قرر فيه : **«الأمان لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم . ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود - [وفق ما طلبوا] - وعلى أهل إيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن . . ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين . . »**[٦] .

بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية - اليهود والنصارى - إلى أهل كل العقائد والديانات ، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التى دخلت فى الدولة الإسلامية . . وعندما فتحت فارس - وأهلها مجوس . . عبدة للنار - سأل عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ - ٥٨٤ -

٦٤٤م] مجلس الشورى ـ مجلس السبعين ـ عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية:

ـ **كيف أصنع بالمجوس؟**

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ ق هـ ـ ٣٢هـ ٥٨٠ ـ ٦٥٢م] فقال:

ـ أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «سنوا فيهم سنة أهل الكتاب»(٧).

❊ ❊ ❊

إن الإسلام لم يطلب ـ ولا يطلب ـ سوى حرية الدعوة، ليحاور ويجادل بالتي هي أحسن ـ وليس فقط بالذى هو حسن ـ ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥]، وليقول للمخالفين: ﴿**هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿**هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿**أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ**﴾ [الأحقاف: ٤].

والإسلام لم يفرض على منكريه وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية، وإنما أعلن أن حسابهم على الله يوم الدين.. ولذلك، قال الإسلام ـ حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ٤ ـ ٦].

وعندما أصبحت للإسلام دولة وسلطة ومؤسسات عقابية تعايش مع المنافقين فى المدينة ـ وهم أخطر من الكفار المعلنين ـ وفى هذه الحقيقة يقول الإمام محمد بن جرير الطبرى [٢٢٤ ـ ٣١٠هـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م]: **«لقد جعل الله الأحكام بين عباده على الظاهر؛ وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد لكان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم الإسلام بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله.. وقد كذّب الله ظاهرهم فى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾** [المنافقون: ١](٨).

وحتى عندما كانت فلتات اللسان تظهر ما فى البواطن ـ بواطن المنافقين ـ فيطلب

بعض الصحابة عقابهم، كان رسول الله ﷺ يرفض إقامة العقاب الدنيوى عليهم، ويقول: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».. وكما يقول ابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م]: «**فإن نفاق عبد الله بن أبى [٩هـ ٦٣٠م]، وأقواله فى النفاق كانت كثيرة جدا، كالمتواترة عند النبى ﷺ وأصحابه، وبعضهم ـ [أى بعض المنافقين] ـ أقر بلسانه، وقال: «إنما كنا نخوض ونلعب»، ولما قيل للنبى ﷺ: ألا تقتلهم؟ قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**(٩).

ولم يقم رسول الله ﷺ حدا ولا عقوبة دنيوية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا.. ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره.. فـ ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].. لأن الإكراه يثمر نفاقًا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.. وما الردة والزندقة والإلحاد إلا أمراض تعترى العقل ـ كالأمراض العضوية التى تعترى البدن ـ وعلاج الأولى بالحوار مع العلماء، وطلب الهداية والشفاء عند الهداة والحكماء.. كما أن علاج الأمراض العضوية هو من اختصاص الأطباء، لا المؤسسات العقابية للدولة.. ولذلك، جعل القرآن الكريم عقوبة الردة عن الدين أخروية، لا دنيوية ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٥٤].

ولم يقم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة ـ حدًا على مرتد إلا فى الحالة الواحدة التى لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الحرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة.. فالنفر الذين اغتصبوا إبل الصدقة ـ مال الدولة ـ وقتلوا الغلمان الذين كانوا يرعون هذه الإبل ـ عمال الدولة ـ ومثلوا بجثثهم، وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الحرابة، وليس فى باب الردة، وذلك عندما نزل فى هؤلاء النفر قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم**

مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

ولهذه الحكمة، جاء تصنيف «باب الردة» ـ فى الفقه الإسلامى ـ ضمن «كتاب الحرابة».. وقال كثير من الفقهاء ـ ومنهم علىّ بن أبى طالب [٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م]، وابن عباس [٣ق هـ ـ ٦٨هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م]، والحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م]، وسفيان الثورى [٩٧ ـ ١٦١هـ ٧١٦ ـ ٧٧٨م]، وأبو حنيفة [٨٠ ـ ١٥٠هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م]، وأصحابه، وعطاء [٢٧ ـ ١١٤هـ ٦٤٧ ـ ٧٣٢م]، وابن شبرمة [١٤٤هـ ٧٦١م]، وابن عُلية [١١٠ ـ ١٩٣هـ ٧٢٨ ـ ٨٠٩م] ـ قالوا إن المرأة المرتدة لا يقام عليها الحد، لأنها غير محاربة، فلم تتحقق الحرابة فى ردتها[9].

فالردة، إذا كانت مجرد اختيار فكرى ذاتى، فإنها تدخل فى حرية الاعتقاد.. وتعالج بالحوار؛ ذلك أنها مرض، والمرض لا يعالج بالعقاب.. وكما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]: **«فإن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة، فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه، فهو فى حكم الميت، لا ينتفع بشىء، وكذلك الذى يقع فى ظلمات الكفر بعد أن هدى إلى نور الإيمان، تفسد روحه، ويظلم قلبه، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية، ولا يعطى شيئًا من أحكام المسلمين الظاهرة، فيخسر الدنيا والآخرة..»**[10].

فالمريض لا يعالج بالقتل، وإنما يعالج بوسائل العافية والشفاء، وهى ـ هنا ـ المحاورة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهات.

وكما يقول صاحب [فقه السنة]: **«فإن الردة كثيرًا ما تكون نتيجة الشكوك والشبهات التى تساور النفس وتزاحم الإيمان، ولا بد أن تتهيأ فرصة للتخلص من هذه الشبهات والشكوك، وأن تقدم الأدلة والبراهين التى تعيد الإيمان إلى القلب، واليقين إلى النفس، وتزيح ما علق بالوجدان من ريب وشكوك، ومن ثم كان من الواجب أن يستتاب المرتد ولو تكررت ردته، ويمهل فترة زمنية يراجع فيها نفسه، وتفند فيها وساوسه، وتناقش فيها أفكاره»**.

وإذا كان بعض العلماء قد حددوا مدة الاستتابة ـ الحوار ـ بثلاثة أيام ـ «**فلقد نقل ابن بطال البطليوسى [٤٠٠هـ ١٠١٣م] عن الإمام علىّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أن المرتد يستتاب شهراً. . وعن النخعى [٤٦ ـ ٩٦هـ ٦٦٦ ـ ٧١٥م] أنه يستتاب أبدًا**». فالمرض. . والعلاج لهذا المرض، لا يختص بمدة محددة، يبدأ بعدها قتل المريض!

وإن سماحة الإسلام، فى حرية الاعتقاد، يكفى فيها قول الإمام مالك رضي الله عنه [٩٣ ـ ١٧٩هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥م]: «**إن من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا، ويحتمل الإيمان من وجه، حُمل أمره على الإيمان**»[١١].

* * *

أما إذا كانت الردة مصحوبة بدعوة إلى نشر الإلحاد، وإشاعة الزندقة، ونقض الإيمان الدينى فى المجتمع، فإنها تصبح لونًا من الحرابة، والخروج على الجماعة، وهدم الإيمان الدينى، الذى هو ركن من أركان الاجتماع، يجب على الدولة الإسلامية حمايته، ومنع نشر الجراثيم التى تفتك به، كما يجب عليها منع نشر جراثيم الأمراض العضوية، حفاظًا على مقومات الاجتماع الإسلامى وصحته وعافيته.

إن نشر الجراثيم ـ الفكرية أو العضوية ـ ممنوع. . أما العلاج من آثار هذه الجراثيم فهو واجب، وغير موقوت. . وكما يقول الإمام محمد عبده: «**فلقد قال قائلون من أهل السنة: إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالبًا غير واقف عند الظن، فهو ناج. فأى سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة**»؟[١٢]

وهذا الذى قاله قائلون من أهل السنة، ليس مجرد اجتهاد، وإنما هو تأسيس على قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٦].

فالإسلام لا يطلب سوى الحرية، التى تمكن أهله من تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهات. . ثم يترك الناس وما يدينون. . ولو أن المشركين ـ فى مكة والجزيرة العربية ـ تركوا للإسلام هذه الحرية لما نشبت معركة، ولا حدثت غزوة، ولا سالت قطرة من دماء.

ذلك أن الإسلام وحده هو الذى تفرد بنظرة متميزة إلى القتال، وذلك عندما رآه الاستثناء المكروه، وليس القاعدة والجبلّة والغريزة المحققة للتقدم - كما قالت بذلك الكثير من الفلسفات - ﴿كُتب عليكمُ القتالُ وهو كُرهٌ لكم﴾ [البقرة : ٢١٦]، ولقد صدّق على هذه الفلسفة القرآنية المتميزة - وشرحها الحديث النبوى الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله**» - رواه الدارمى.

❊ ❊ ❊

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالفين فى الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال.. والتحريض عليه.. دائمًا وأبدًا فى سياق الحديث عن صد عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم فى دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشىء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلُونَ بأنهم ظُلِمُوا وإنَّ الله على نصرهم لقديرٌ (٣٩) الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍ إلا أن يقولوا ربُّنا الله﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامى هما معيار «الولاء» و«البراء»، و«السلم» و«الحرب» بين المسلمين وغير المسلمين.. وفى التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاء آيات القرآن الكريم: ﴿عسى اللهُ أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ (٧) لا ينهاكمُ اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكمُ اللهُ عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٧-٩].

❊ ❊ ❊

- ٥ -

وفى التاريخ الإسلامى

وإذا كان المسلمون قد فتحوا فى ثمانين عامًا، أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقفت عند تحرير الشرق من قهر القوى الاستعمارية - وخاصة الروم - الذين استعبدوا الشرق وقهروه - ومن قبلهم الإغريق - عشرة قرون - من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ق م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد.. وحتى هرقل [٦١٠ - ٦٤١م] - فى القرن السابع بعد الميلاد.

وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسى والدينى والثقافى والحضارى، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية، التى شهدت معارك تلك الفتوحات.. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية - ضد الفرس والروم - وهم على دياناتهم القديمة.. حدث ذلك بمصر، والشام، والعراق..

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يدينون، حتى **إن الذين دخلوا فى الإسلام - من أهل مصر والشام وفارس - بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على ٢٠٪ من السكان!..** [١٣] فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحررة من الروم المتربصين - الذين ظلوا يجيّشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية [٨٥٧ هـ ١٤٥٣م]. كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرية الضمير والاعتقاد الدينى، الذى سبق وقهره الرومان عشرة قرون!..

ولقد شهد بهذه الحقيقة - حقيقة سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التى دخلت فى دولة الإسلام - التاريخ والمؤرخون.. وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.

فهذا الفتح الإسلامى هو الذى أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليمكن أن نقول - دون مبالغة - إن بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبَةُ الإسلام وسماحة الإسلام.

فعمرو بن العاص [٥٠ ق هـ - ٤٣هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م] هو الذى أمّن البطرك المصرى «بنيامين» [٣٩-٦٥٩م] على حريته، وأعاده إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عامًا من الهرب والاختفاء عن أعين الرومان.. وهو الذى حرر كنائس نصارى مصر وأديرتهم من الاغتصاب الرومانى، لا ليجعلها مساجد، وإنما ليردها لأصحابها النصارى يتعبدون فيها بحرية، للمرة الأولى فى تاريخ النصرانية المصرية!.. ومع تحرير الأرض.. والكنائس والأديرة.. حرر عمرو بن العاص - لأنه مسلم - ضمائر الشعوب التى أدخلتها الفتوحات فى دولة الإسلام، لأول مرة فى تاريخ نصرانية تلك الشعوب! بعد أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسود!!..

❊❊❊

- ٦ -

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجاة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هى الشاهد المادى - الأصدق - على حقيقة السماحة الإسلامية . . فإن المؤرخين النصارى - من الشرق والغرب . . القدماء والمحدثين - قد شهدوا - هم أيضًا - لهذه السماحة الإسلامية .

ففى أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص مع نصارى مصر ، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان ، وهزيمة الاستعمار الرومانى بمصر على يد الجيش الإسلامى الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر . . ففى تاريخ "يوحنا النقيوسى" - وهو معاصر للفتح وشاهد عليه - :

«إن الله ، الذى يصون الحق ، لم يهمل العالم ، وحكم على الظالمين ، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه ، وردهم إلى يد الإسماعيليين - [العرب المسلمين] - ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر . . وكان هرقل حزينًا . . وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر ، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم . . مرض هرقل ومات . . وكان عمرو - [بن العاص] - يقوى كل يوم فى عمله ، ويأخذ الضرائب التى حددها ، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس ، ولم يرتكب شيئًا ما ، سلبًا أو نهبًا ، وحافظ عليها - [الكنائس] - طوال الأيام . . »[١٤] .

إنها شهادة شاهد عيان . . نصرانى . . على هذه السماحة الإسلامية ، التى تجسدت على أرض الواقع ، ومتى؟ . . قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان! . . وهى سماحة نابعة من الدين الإسلامى . . وليست كحقوق المواطنة ، التى لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين ! ! . .

وبعدما استقبل عمرو بن العاص البطرك القبطى «بنيامين»، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته وحرية عقيدته - بل وطلب منه أن يدعو له! - أخذ «بنيامين» فى زيارة كنائسه، وفى إعادة افتتاحها.. وكان الناس يستقبلونه فرحين. مرددين العبارات التى تشهد على أن هذا الفتح الإسلامى إنما هو عقاب إلهى للرومان جزاء الظلم الذى أوقعوه بالنصارى المصريين.

وعن هذه الحقيقة من حقائق سماحة التحرير الإسلامى لشعوب الشرق، يقول الأسقف «**يوحنا النقيوسى**» فى أقدم تاريخ للفتح الإسلامى لمصر.. كتبه شاهد عيان:

ودخل الأنبا «بنيامين» بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم فى العام ١٣ - [أى العام الثالث عشر من تاريخ هروبه] - وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفى، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا «كيرس» - [البطرك المعين من قبل الدولة الرومانية فى مصر] - وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر..»[١٥].

ولقد عبر الأنبا «بنيامين» عن الأمان الذى أحلّته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان - النصارى - ضد نصارى مصر!.. فقال وهو يخطب فى دير «مقاريوس»:

«لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون»[١٦].

أما رجل الدين المسيحى - القبطى - «**ميخائيل السريانى**»، فإنه يقول عن تحرير الفتح الإسلامى للنصرانية المصرية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

«لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا المونوفيزتية - [القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح] - بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»[١٧].

تلك شهادات شهود العيان . . ورجال الدين النصارى، تقول: إن الفتوحات الإسلامية كانت «الإنقاذ» لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الرومانى . . وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان! . . حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته - وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان - و«سيادة الإسلام» فى مصر والشرق آية من آيات الله! . .

أما المستشرق الإنجليزى الحجة **سير توماس أرنولد** [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] - وهو أبرز من أرّخ لانتشار الإسلام، فى كتابه [الدعوة إلى الإسلام] - فإنه يؤكد على حقيقة السماحة الإسلامية، فيقول:

«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة. وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين، كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح . .»[١٨].

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التى كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الرومانى . . زحفوا للقاء عمرو بن العاص، حتى **«ليروى أنه خرج للقائه من أديرة وادى النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتابًا - [بالأمان] - هو عندهم»**[١٩].

وفى شهادة قبطية حديثة، تأكيد على سماحة الإسلام مع نصارى مصر - فى شئون الدين والدنيا جميعًا - وفيها يقول «**يعقوب نخلة**» [١٨٤٧ - ١٩٠٥م] - صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية] - :

«ولما ثبت قدم العرب فى مصر، شرع عمرو بن العاص فى تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم.

وأول شىء فعله من هذا القبيل: استدعاء «بنيامين» البطريرك، الذى اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أمانًا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك

للحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر، وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريك الذى كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلى معززًا مكرمًا . .
وكان «بنيامين» موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) . وقيل إن عمرو لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوه فى بعض الأوقات ويستشيره فى الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو .

واستعان عمرو فى تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلاً منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية، واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة، وعين نوابًا من القبط ومنحهم حق التداخل فى القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية . .

وضرب ـ [عمرو بن العاص] ـ الخراج على البلاد بطريقة عادلة . . وجعله على أقساط، فى آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد .

وبالجملة، فإن القبط نالوا فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان . . »[٢٠] .

هكذا تعلن هذه الشهادة القبطية ـ التى نشرتها، فى طبعتها الثانية، «مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ» ـ أن الفتح الإسلامى والسماحة الإسلامية قد حررا الأرض . . والضمير . . والإنسان . . فأصبحت حكومة مصر لنصارى مصر، لأول مرة فى تاريخ النصرانية المصرية . . كما حققت السماحة الإسلامية العدل فى الاقتصاد والاجتماع . . وجعلت الحاكمية لشرائع القبط الدينية والأهلية ـ فيما هو خاص بأحوالهم الدينية . . التى تركوا فيها وما يدينون .

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبوا ـ عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ سنة ٦٤٦م . فى عهد الراشد

الثالث عثمان بن عفان [٤٧ق هـ ـ ٣٥هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] هبوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان ـ النصارى! ـ وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص، لقيادة المعركة.. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدى الرومان.. وبعبارة صاحب كتاب [**تاريخ الأمة القبطية**]:

«فإن المقوقس والقبط تمسكوا بعهدهم مع المسلمين، ودافعوا عن المدينة ـ [الإسكندرية] ـ ما استطاعوا.. واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص فى العودة إلى مصر لمقاتلة الروم، لتدربه على الحرب، وهيبته فى عين العدو، فأجاب الخليفة طلبهم.. وكان القبط يحاربون مع العرب ويقاتلون الروم خوفًا من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع الأقباط فى يدهم مرة أخرى..»[٢١].

وفى شهادة لمؤرخ نصرانى معاصر ـ هو الدكتور «چاك تاجر» [١٣٣٦ ـ ١٣٧١هـ ١٩١٨ ـ ١٩٥٢م]، يقول:

«إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين، بعد أن ضمن لهم العرب عند دخولهم مصر، الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب.. ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام وإدماجهم فى المجموعة الإسلامية، بفضل إعفائهم من الضرائب.. أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية، فقد يسر لهم العرب سبل كسب العيش.. إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة..»[٢٢].

وهذه السماحة الإسلامية، التى تحدثت عنها هذه الشهادات النصرانية الشرقية، والتى أكدت وتؤكد أن هذه السماحة لم تقف فقط عند «الدين»، وإنما امتدت لتترك «جهاز الدولة» أيضًا لأهل البلاد.. قد شهد بحقيقتها المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز» [١٨٦٩ ـ ١٩١٧م] عندما قال:

«لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[٢٣]!

***

وحتى فترات «التوتر الدينى والطائفى» التى شهدها التاريخ الإسلامى، بين المسلمين وغير المسلمين ـ والتى ما كان متصورًا لهذا التاريخ الطويل أن يخلو منها ـ فإن

سماحة الإسلام قد ظلت بريئة منها . وذلك بشهادة المؤرخين الثقات من غير المسلمين . . والذين يقول واحد منهم ـ وهو المؤرخ الاجتماعي اللبناني «چورج قرم» . عن أسباب هذا التوتر الطائفي ـ الذي كان عابراً كسحب الصيف في سماء ذلك التاريخ الطويل ـ يقول هذا المؤرخ النصراني عن أسباب هذا التوتر، إنها محصورة في ثلاثة أسباب :

١ ـ المزاج الشخصي المختل لحكام، اضطهدوا الأغلبية المسلمة مع الأقليات غير المسلمة .

٢ ـ الظلم والاستعلاء الذي مارسته الزعامات النصرانية واليهودية، التي قبضت على جهاز الدولة المالي والإداري، فاضطهدت جمهور المسلمين الفقراء، الأمر الذي ولد ردود أفعال لم تقف عند الذين ظلموا منهم خاصة .

٣ ـ استجابة قطاعات من أبناء الأقليات لغوايات الغزاة الغربيين، الأمر الذي ولّد ردود أفعل عنيفة ـ عقب الغزوات الغربية ـ طالت قطاعات من أبناء هذه الأقليات .

لقد حصر «چورج قرم» التوتر الطائفي، الذي مر بتاريخ السماحة الإسلامية، في هذه الأسباب الثلاثة، فقال :

«إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

العامل الأول : هو مزاج الخلفاء الشخصي، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ٨٢١ ـ ٨٦١م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة . وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [٣٧٥ ـ ٤١١هـ ٩٨٥ ـ ١٠٢١م] الذي غالى في التصرف معهم بشدة .

العامل الثاني : هو تردي الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار .

أما العامل الثالث : فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد

الأغلبية المسلمة. إن الحكام الأجانب ـ بمن فيهم الإنجليز ـ لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب ـ وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضًا، حيث أظهرت أبحاث «جب» [١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م. ونهايات الحملات الصليبية قد أعقبها، فى أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ـ ولا سيما الأرمن ـ التى تعاونت مع الغازى.

بل إنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سببًا فى نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم، إلى حد الصفاقة أحيانًا لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة..»[٢٤].

***

تلك هى السماحة الإسلامية..

كما تجلت فى القرآن الكريم..

وفى البيان النبوى للبلاغ القرآنى..

وكما تجسدت فى المواثيق الدستورية.. وفى الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية ـ فى العهد النبوى.. والخلافة الراشدة.. وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية..

وكما شهدت بها المصادر التى كتبها المؤرخون الثقات، من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين.. والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين.. وذلك عملاً بمنهاج «وشهد شاهد من أهلها» على هذه السماحة الإسلامية، التى تفرد بها الإسلام.. والتى لا نظير لها خارج إطار الإسلام؟

***

الهوامش:

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ . طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .

(٢) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ جمعها وحققها : د . محمد حميد الله الحيدر آبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

(٣) ابن القيم [زاد المعاد من هدى خير العباد] جـ٣ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ - تحقيق : شعيب الأرناءوطي ، عبد القادر الأرناءوطي . طبعة بيروت سنة ١٤١٨هـ سنة ١٩٩٧م . ومحمد بن يوسف بن صالح الشامى [سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد] جـ٦ ص ٦٤٢ . تحقيق : إبراهيم الترزى ، عبد الكريم العزباوى - طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ سنة ١٩٩٧م .

(٤) [مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١٢ ، ١٢٣ - ١٢٧ .

(٥) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ . طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م .

(٦) [مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٧) البلاذرى [فتوح البلدان] ص ٣٢٧ . تحقيق : د . صلاح الدين المنجد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

(٨) [الجامع لأحكام القرآن] جـ١ ص ٢٠٠ .

(٩) المصدر السابق : جـ٣ ص ٤٨ .

(١٠) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٤ ص ٥٥٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

(١١) سيد سابق [فقه السنة] جـ ٢ ص ٣٨٤ ، ٣٨٧ - ٣٨٩ . طبعة مكتبة التراث - القاهرة - بدون تاريخ .

(١٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٨٢ .

(١٣] فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢٥ ترجمة: بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

(١٤) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: رؤية قبطية للفتح الإسلامى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(١٥) المصدر السابق، ص ٢٢٠ .

(١٦) المصدر السابق، ص ٢٢٠ .

(١٧) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(١٨) سير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(١٩) [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ١٩٤ .

(٢٠) يعقوب نخلة [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٤ ـ ٥٧ تقديم: د. جودت جبرة. طبعة مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ ـ القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢١) المصدر السابق، ص ٥٨، ٥٩ .

(٢٢) د. چاك تاجر «أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢م] ص ٣٠٩، ٣١٥. طبعة الهيئات القبطية بالمهجر ـ مدينة جرسى ـ أمريكا سنة ١٩٨٤م.

(٢٣) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ١ ص ١٠٥. ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(٢٤) چورچ قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوچية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ ـ ٢٢٤. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م ـ والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

***

المصادر والمراجع

- **آدم متز**: [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.
- **ابن عبد الحكم**: [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.
- **ابن القيم**: [زاد المعاد من هدى خير العباد] تحقيق: شعيب الأرناءوطى، عبد القادر الأرناءوطى. طبعة بيروت سنة ١٤١٨هـ - سنة ١٩٩٧م.
- **أرنولد (سير توماس)**: [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، ود. عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- **البلاذرى**: [فتوح البلدان] تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- **د. چاك تاجر**: [أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢م] طبعة - مصورة - الهيئات القبطية بالمهجر - مدينة جرسى - أمريكا - سنة ١٩٨٤م.
- **د. چورچ قرم**: [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوچية مقارنة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.
- **د. سعد الدين إبراهيم**: [الملل والنحل والأعراق] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.
- **سيد سابق**: [فقه السنة] طبعة مكتبة التراث - القاهرة - بدون تاريخ.
- **د. صبرى أبو الخير سليم**: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.
- **فيليب فارج، يوسف كرباج**: [المسيحيون واليهود فى التاريخ العربى والتركى] ترجمة: بشير السباعى، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

- **القرطبى** : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .
- **د. محمد حميد الله - محقق** : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .
- **محمد عبده (الأستاذ الإمام)** : [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .
- **محمد بن يوسف بن صالح الشامى** : [سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد] تحقيق : إبراهيم الترزى، عبد الكريم العزباوى - طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ - سنة ١٩٩٧م .
- **يعقوب نخلة روفيلة** : [تاريخ الأمة القبطية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م .
- **يوحنا النقيوسى** : [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م .

* * *

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

- ١ -

تمهيد

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة: **الجهاد .. والقتال .. والإرهاب**. وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متنفذة ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه ... ليس فقط منذ «قارعة» «سبتمبر سنة ٢٠٠١م» التي وقعت بأمريكا .. وإنما قبل هذه «القارعة» بعقود .. وربما قرون .. لكن هذه «القارعة» قد تصاعدت بهذه الحملة - ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات - تصاعداً غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق، والغربيين بالشرقيين.

ولا أدل على سبق الريبة في مضمون مصطلح الجهاد الإسلامي، والخلط بينه وبين القتال والعنف الإرهابي - الذي يروّع الأبرياء والآمنين - لا أدل على ذلك من حذف قمة منظمة المؤتمر الإسلامي مصطلح الجهاد من بيانها الختامي - في «داكار» بالسنغال ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م ... وذلك مخافة «الظلال السلبية التي ألحقها هذا الخلط بمصطلح الجهاد!».

ولأن النظر إلى **«الآخر»** من خلال **«الذات»** هو عيب شائع في الدراسات المقارنة بين الديانات والثقافات والحضارات؛ لأنه يؤدي إلى صب «الآخر» في قوالب «الذات» وتجاهل - ومن ثم إلغاء - الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات، وذلك بدلاً من التمييز بين **«الأشباه والنظائر»** التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع الدراسة، وبين **«الفروق»** التي تمايز بينها ... كان هذا المنهاج الآحادي الجانب هو السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين العديد من المصطلحات.

صحيح أنه لا مشاحة فى استخدام المصطلحات من قِبَل أهل الحضارات المختلفة والديانات المتعددة والثقافات المتمايزة . . لكن هناك مشاحة أكيدة فى المضامين والمفاهيم والمحتويات التى تُفهم -لدى كل فريق- من ذات المصطلحات . . . فالمصطلحات بمثابة الأوعية ، يستخدمها ويتداولها الجميع ، لكن محتويات هذه الأوعية - مضامين المصطلحات- تتفاوت وتتغاير وتتمايز - بل وقد تتناقض- لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة ، رغم وحدة المصطلحات .

لقد استخدمت الدنيا - عبر تاريخها- ولا تزال تستخدم مصطلح «السياسة» . . لكن هناك ثقافات وحضارات قد جعلت «القوة . . . والغلبة» هى المضامين والمقاصد من وراء فلسفة السياسة وآلياتها . . . بينما ربطت الثقافة الإسلامية هذه السياسة بمعايير الصلاح والقيم والأخلاق . . . فرأتها : «التدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»[1] .

واستخدمت الدنيا - عبر تاريخها- ولا تزال تستخدم مصطلح «الدين» . . لكن هناك الفلسفات الوضعية التى رأت فى الدين إفرازًا للعقل البشرى ، ورأت فى «التوحيد الدينى» مرحلة متطورة من مراحل هذا الإفراز والإبداع البشرى! . . بينما رأته الفلسفات الإيمانية - ولا تزال- وحيًا سماويًا ، ووضعًا إلهيًا منذ فجر البشرية ، لهداية الناس فى المعاش والمعاد .

واستخدمت الدنيا ـ منذ قرون طويلة ـ ولا تزال تستخدم مصطلح «الإقطاع» . . لكن هناك ثقافات وحضارات ومذاهب اجتماعية ترى فيه : تملّك إنسان للأرض وما عليها ومن عليها . . . بينما رأته الثقافة الإسلامية وتراثها وتاريخها الحضارى : مجرد تمليك منفعة ، لإحياء الأرض الموات ؛ لأن مالك الرقبة - المالك الحقيقى - للأرض وجميع الثروات هو الله - سبحانه وتعالى- . . والناس - مطلق الناس- مستخلَفون ونواب ووكلاء فى هذه الأرض وما فيها وما عليها من الأموال والثروات[2] .

وكذلك الحال مع مصطلحات الجهاد . . . والقتال . . . والإرهاب . . . حدث هناك خلط كبير وشديد بين مفاهيمها ومضامينها ومحتوياتها ، على النحو الذى نشكو منه هذه الأيام .

- ٢ -

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من العلماء الغربيين، الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة، والذين تحررت ضمائرهم من قيود المقاصد «الإمبريالية» الغربية، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة الحضارة الإسلامية وتاريخ المسلمين - سواء بسوء فهم أو سوء نية - قد وقعوا فى خطأ النظر إلى «الذات الإسلامية» من خلال منظار «المعايير» التى حكمت مسيرة الحضارة الغربية، والكهانة الكنسية للنصرانية الغربية، والتاريخ الحضارى الغربى، وما شهده من صراعات .

* فإذا ذُكرت الخلافة الإسلامية -وهى دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية- قفز إلى مخيلتهم كهانة الدولة الكنسية الأوروبية التى حكمت بالحق الإلهى والتفويض السماوى .

* وإذا ذُكر الحق فى المواطنة، لم يتصوروه إلا قائمًا على أنقاض الدين وشريعته، وفى ظلال العلمانية واللادينية .

* وإذا ذُكر الدين، لم يتصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان وخالقه، تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، لا علاقة لها بهذا العالم؛ لأنها تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله .

وانطلاقًا من النظر إلى «الآخر الإسلامى» من خلال منظار «الذات الغربية» حسَب هؤلاء الغربيون - ومعهم مثقفونا المتغربون- الجهاد الإسلامى «حربًا دينية مقدسة» ضد أصحاب الديانات الأخرى، تكون معايير البراء والعداء والصراع فيها هى الاختلافات فى المعتقدات .

ولقد كانت الحروب الصليبية، التى شنها الغرب النصرانى على الشرق الإسلامى، والتى دامت قرنين من الزمان (٤٨٩-٦٩٠هـ ١٠٩٦-١٢٩١م)، والتى غلفتها الكنيسة بالدعاوى الدينية الخالصة لتحجب مقاصدها «الإمبريالية» . . . كانت هذه الحروب الدينية المقدسة هى النموذج الذى قاس عليه هؤلاء الغربيون - والمتغربون - الجهاد الإسلامى، فكان خلط الأوراق والمفاهيم الذى نشكو منه حتى هذه اللحظات .

لقد شنت الكنيسة الأوروبية حربها الدينية المقدسة - الصليبية - ضد الإسلام وأمته وعالمه، باعتبارها حربًا ضد «الكفار» لتخليص «قبر الله - المسيح» - بزعمها - من أيدى هؤلاء الكفار، معلنة أن هذه الحرب المقدسة هى حرب إلهية، لذات الله، وفى ذات الله، وأن فرسانها إنما يحملون «مفاتيح الجنة» مع أدوات القتل والقتال!

وعن هذه الطبيعة الدينية لهذه الحرب - التى غلفت مقاصدها الإمبريالية - جاء فى خطاب البابا الذهبى «أوربان الثانى» (١٠٨٨-١٠٩٩م) الذى دعا فيه فرسان الإقطاع الأوروبى إلى هذه الحرب المقدسة :

«يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا، لقد آن الزمان الذى فيه تحوِّلون **ضد الإسلام** تلك الأسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد البعض . . **فالحرب المقدسة المعتمدة الآن . . . هى . . . فى حق الله عينه** . . . وليست هى لاكتساب مدينة «واحدة» . . . بل هى أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء . . .

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنًا وعسلاً . . . ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصبة المشابهة فردوس سماوى .

اذهبوا وحاربوا البربر - (يقصد المسلمين!) - لتخليص الأراضى المقدسة من استيلايهم . . . **امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية - أى : مفاتيح الجنة التى صنعها لهم البابا!** - واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية، فإذا أنتم انتصرتم على أعدايكم، فالملك الشرقى يكون لكم قسمًا وميراثًا . . .

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدوانا . . . ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا ، فاغسلوها بدم غير المؤمنين»!![3] .

* ولذلك ، لم يقف دور رجال الكهنوت الكنسى الأوروبى فى هذه «الحرب المقدسة» عند التنظير والتحريض للعامة والدهماء ، والترغيب لفرسان الإقطاع «بمفاتيح الجنة!» . . . وإنما وجدنا كرادلة الكنيسة . . . يشاركون - هم أنفسهم- فى مجازر هذه «الحرب المقدسة» معتبرين ذبح المسلمين أعظم القربات التى يتقربون بها لإرضاء الرب!!

فالصليبيون الذين غزوا القدس (٤٩٢هـ-١٠٩٩م) قد ذبحوا وأحرقوا كل من وقع فى أيديهم من المسلمين ، حتى الشيوخ والنساء والأطفال - ذبحوا سبعين ألفًا ، فى سبعة أيام ! - حتى الذين احتموا بمسجد قبة الصخرة - مسجد عمر بن الخطاب- ذُبحوا ، وسبحت خيول الصليبيين فى دمائهم إلى لُجم الخيل - كما نقل ذلك عن شهود العيان رجل الدين النصرانى صاحب كتاب (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق)[4] .

ولقد كان رجال الدين النصارى - نعم رجال الدين !- فى مقدمة الذين اجترحوا هذه الفظائع والسيئات . . . **ولقد وصف المؤرخ الأوروبى «ميشائيل درسيرر» صنيع «البطريرك نفسه فى هذه المذبحة عندما كان يعدو فى أزقة بيت المقدس ، وسيفه يقطر دمًا ، حاصدًا به كل من وجده فى طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح ، فأخذ فى غسل يديه ، تخلصًا من الدماء اللاصقة بها ، مرددًا كلمات المزمور : «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار ، ويغسلون أقدامهم بدمهم ، فيقول الناس : حقًا إن للصدّيق مكافأة ، وإن فى الأرض إلهًا يقضى»** - [المزمور ٥٨ : ١٠-١١] .

ثم أخذ - البطريرك- فى أداء القداس ، قائلاً : «إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب»!![5]

فهى حرب دينية مقدسة . . . فى ذات الله . . . ولعين الله . . . يحمل فرسانها مفاتيح الجنة . . . وذبحهم للمسلمين فيها هو أعظم القربات التى يتقدم بها هؤلاء الصليبيون إلى الله!!

***

* كذلك، جعلت الكنائس الغربية - الكاثوليكية.. والبروتستانتية - صراعات شعوبها وأمرائها ضد بعضهم البعض حروبًا مقدسة، هدفها الإكراه على تغيير الاعتقاد الديني... يتقربون بمجازرها إلى الله، ويقيمون الصلوات والقداديس في ذكرى المجازر التي ارتكبوها فيها، شكراً لله!!

لقد غدت هذه الكنائس - التي تنازعت النصرانية والأناجيل وطبيعة المسيح - عليه السلام - ديانات مستقلة، لكل كنيسة منها «قانون للإيمان» يحتكر الدين والخلاص الديني لأبناء المذهب دون سواهم، ويتخذ من هذه الحرب الدينية المقدسة سبيلاً من العنف القتالي لإبادة المخالفين في المذهب، أو إكراههم على تغيير عقيدتهم الدينية.

وفي هذه الحروب الدينية المقدسة - التي دامت أكثر من قرنين من الزمان - بين الكاثوليك والبروتستانت، والتي اشتهر منها إحدى عشرة حربًا في (١٥٦٢-١٥٦٣م) و (١٥٦٩-١٥٧٠م) و (١٥٧٢-١٥٧٣م)، (١٥٧٤-١٥٧٦م) و (١٥٧٦-١٥٧٧م) و(١٥٨٠م) و(١٥٨٥-١٥٩٤م) (١٥٨٦م) و(١٦٢١م) و(١٦٢٥-١٦٢٩م)... والتي أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا!!... في هذه الحروب ذبح الكاثوليك - على عهد «تشارلس التاسع» (١٥٥٠-١٥٧٤م) وحده - أكثر من عشرين ألفًا من البروتستانت!... ويومئذ انهالت التهاني على الملك، وكاد البابا «جريجوري الثالث عشر» (١٥٧٢-١٥٨٥م) يطير فرحًا بهذه المذابح المقدسة وضحاياها!!... حتى أنه أمر أن تُسك أوسمة لتخليد ذكرى هذه «المجازر المقدسة»، وتوزع على الشعب والأعيان... ولقد رسمت صورة البابا على هذه الأوسمة، وإلى جانبه صورة الملك «تشارلس التاسع» وهو يضرب بسيفه أعناق «الملحدين - البروتستانت»! وكتب على هذه الأوسمة عبارة: «إعدام الملحدين»!

كذلك، أمر البابا - لمزيد من الاحتفال بهذه المجازر المقدسة - بإطلاق المدافع، وإقامة القداديس في شتى الكنائس، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذابح على حوائط الفاتيكان[٦].

***

* كذلك كانت محاكم التفتيش التى أقامتها كل كنيسة غربية ضد مخالفيها فى الاعتقاد . . . والتى أقامتها ضد المسلمين واليهود عقب إسقاط «غرناطة» (٨٩٧هـ- ١٤٩٢م) واقتلاع الإسلام من الأندلس، كانت محاكم التفتيش هذه-والتى دامت ثلاثة قرون ! - حروبًا دينية مقدسة، أرادت من ورائها الكهانة الكنسية الغربية «خلاص» المخالفين «بتخليصهم من الحياة» ! ! **«فالذين لا يذعنون للكنيسة، ويعتقدون بصدق نظرياتها، تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة . . . ويصبح إنقاذ الدنيا منهم واجبًا مقدسًا ! ! . . . وحتى الطفل - على براءته وخلو ساحته من الخطايا- متى مات من غير تعميد- على المذهب الكاثوليكى- قضى بقية حياته فى جهنم ! . . ولذلك كان طبيعيًا - فى ظل هذه العقيدة للخلاص، وهذا الدستور لاضطهاد المخالفين - أن يتعرض المتهمون بالمروق لأشد صنوف العذاب . .»**[٧].

ولقد توطد وشاع نظام محاكم التفتيش هذه حتى غطى كل أنحاء العالم المسيحى بشبكة لا سبيل إلى اتقائها . . . تعاون فيها وعليها البابوات والقساوسة والرهبان والملوك والأمراء والعامة والدهماء . . . وشهدت انجلترا - فى عهد الملك «هنرى الرابع» (١٣٩٩-١٤١٣م) والملك «هنرى الخامس» (١٤١٣-١٤٢٢م) ـ موجة من الإعدامات للمخالفين بواسطة الإجلاس على الخازوق ! . . . ولم يلغ هذا الأسلوب نهائيًا إلا فى ١٦٧٦م !

أى أن الإعدام بالخازوق المقدس قد دام قرابة ثلاثة قرون !

أما فى إسبانيا فلقد بدأت محاكم التفتيش فى عهد الملكة «إيزابيلا» (١٤٥١- ١٥٠٤) والملك «فرديناند» (١٤٥٢-١٥١٦)- بمباركة البابا «سكستوس الرابع» (١٤٧١-١٤٨٤م) . . . وشملت حتى المستعمرات التى حكمتها إسبانيا . . . وطبقت على المسلمين واليهود المهزومين، رغم عهد الأمان الذى حصلوا عليه . . . فأجبر على التنصر منهم من ضعف عن تحمل العذاب . . . وفر من إسبانيا من آثر التمسك بدينه . . . وغرقت البلاد فى حمام من الدم الذى سفكته محاكم التفتيش .

وكان المبدأ العام الذى يحكم محاكم التفتيش هذه - وفق «فرمان الإيمان»- يقول : **«لأن يُدان مائة برىء زورًا وبهتانًا، ويعانوا العذاب ألوانًا، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد» !**[٨].

وعند تنفيذ أحكام هذه المحاكم، «فكل من ساهم فى تقديم الوقود الذى يحرق به المحكوم عليه، فقد استحق المغفرة لما قدم من الذنوب»!![٩]

***

هكذا عرف اللاهوت الكنسى الغربى تلك الحروب الدينية المقدسة . . . ضد الإسلام والمسلمين . . . وضد الكنائس المخالفة فى الاعتقاد . . . وضد الأفراد الذين اتهموا بحرية التفكير والبحث العلمى خارج الإنجيل .

وانطلاقًا من هذا النموذج «الحضارى» و«التاريخى» ومن خلال هذا المنظار الغربى نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد، الذى تحدث عنه القرآن الكريم . . . والذى جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام .

***

- ٣ -

حقيقة الجهاد الإسلامى

إن الجهاد الإسلامى ليس حربًا دينية مقدسة؛ لأن الإسلام ينكر ويستنكر أى حرب دينية، فالإيمان الإسلامى: تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين . . . وهو سر بين المؤمن وبين خالقه، لا يتأتى إلا بالفهم والعلم والإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأى لون من ألوان الإكراه - فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفًا قتاليًا- ولذلك، قرر القرآن الكريم القاعدة المُحكمة والحاكمة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . . والتى لا تعنى فقط «النهى» عن الإكراه فى الدين، وإنما تعنى - أيضًا- «نفى» أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه! . . . إذ الإكراه يثمر «نفاقًا» - وهو أخطر من «الشرك» الصراح و«الكفر» البواح- . . . ولا يمكن أن يثمر «إيمانًا» بحال من الأحوال . . ولذلك، شاعت فى القرآن الكريم الآيات التى تقول للمخالفين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. والتى تحدد مهمة الرسالة فى الاعتقاد ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢]. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

***

وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامى وبين الحرب الدينية المقدسة هو أثرًا من آثار سوء الفهم للإسلام، أوسوء النية فى تصوير الإسلام . . فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامى فى القتال الذى تحدث عنه القرآن الكريم، ومارسه المسلمون فى عصر النبوة، وعلى امتداد تاريخ الإسلام .

وذلك أن الجهاد الإسلامى - الذى هو فريضة إسلامية - أعم من القتال- الذى شرعه الإسلام- فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً . . . إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد، وليس كل الجهاد!

إن الجهاد فى اصطلاح العربية ـ كما جاء فى «لسان العرب» لابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ ١٢٣٢ -١٣١١م) هو: «استفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو فعل». . . فهو لا يقف عند «الفعل» فضلاً عن أن يكون هذا «الفعل» فقط هو «الفعل العنيف» - الحرب- دون سواه .

والجهاد فى الاصطلاح القرآنى «هو بذل الوسع فى المدافعة والمغالبة» فى كل ميادين المدافعة والمغالبة. . أى فى كل ميادين الحياة . . وليس فقط فى ميادين القتال. . . «وأكثر ما ورد الجهاد فى القرآن الكريم ورد مراداً به بذل الوسع فى نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها»[١٠] . . وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن . . وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة . . فميادين الجهاد الإسلامى الأكبر والأعظم والأغلب هى عوالم الأفكار والحوار . . .

وكذلك جاء تعريف الجهاد «بالدعاء إلى الدين الحق» فى الكثير من موسوعات المصطلحات فى تراث حضارة الإسلام[١١] .

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد فى ميادين العلم والتعلّم والتعليم هو جهاد. . وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد فى عمران الأرض ـ نهوضاً بأمانة الاستخلاف الإلهى للإنسان ـ هو جهاد . .

بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد - الطبيعة - هو جهاد . .

وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولى الأرحام هو جهاد . .

كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه - سبحانه وتعالى- هى قمة من قمم الجهاد الذى فرضه الإسلام . . .

ولهذه الحقيقة - حقيقة عموم الجهاد فى كل ميادين الحياة، وليس اختزاله فقط فى القتال - قسّم الراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ ١١٠٨م) «الجهاد إلى ثلاثة أضرب:

١- مجاهدة العدو الظاهر . .

٢- ومجاهدة الشيطان . .

٣- ومجاهدة النفس . .

وتدخل ثلاثتها فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج : ٧٨] ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة : ٤١] . ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ [الأنفال : ٧٢] **- وقال ﷺ : «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم . . وجاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم»**(١٢) .

وعندما نزل - بالقرآن الكريم - فى الشعر ما نزل : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون (٢٢٤) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : ٢٢٤-٢٢٧] . . . ذهب الصحابى الشاعر كعب بن مالك [٥٠هـ - ٦٧٠م] إلى رسول الله ﷺ فقال :

- يا رسول الله ، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل فى الشعر ما قد علمت ، فكيف ترى فيه؟

- فقال ﷺ : **«إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»** - أى رمى النبل - رواه الإمام أحمد . . .

فالكلمة الصادقة جهاد . .

بل إن الموضع الوحيد الذى وصف فيه «الجهاد» بـ«الكبير» - فى القرآن الكريم - كان حديثًا عن الجهاد بالقرآن - أى بالفهم والوعى والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة - وليس حديثًا عن القتال بالسنان : ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ [الفرقان : ٥٢] .

بل لقد جعلت السنة النبوية - وهى البيان النبوى للبلاغ القرآنى - من **أفعال القلوب** - وليس فقط الأيدى والألسنة - ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامى . . . فعن

عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى، إلا كان من أمّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»** -رواه مسلم-.

كذلك جعلت السنة النبوية **العلم والتعلّم** قرينًا مساويًا للجهاد فى سبيل الله..

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرًا أو ليعلّمه كان كالمجاهد فى سبيل الله»** - رواه البخارى ومسلم.. وفى الحديث كذلك أن: **«الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله»** - رواه البخارى ومسلم - وكذلك **بر الوالدين**، هو ميدان من ميادين الجهاد الإسلامى، نص حديث رسول الله ﷺ.. فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد، فقال له ﷺ:

- **«أحىٌّ والداك؟»**

- قال: نعم.

- قال ﷺ: **«ففيهما فجاهد»** - رواه البخارى ومسلم-.

وكذلك الحال مع **حراسة النفس من الشيطان**، يعدها الإسلام ميدانًا من ميادين الجهاد... وكما يقول المعصوم ﷺ: **«فالمجاهد من جاهد نفسه فى الله -عز وجل»** -رواه الترمذى والإمام أحمد-..

ومثل ذلك **حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام** - كل الثغور- هى جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله... فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

- **«أتدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟»**

- قالوا: الله ورسوله أعلم.

- قال ﷺ: **«أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء، والمهاجرون الذين تُسد بهم الثغور ويُتّقى بهم المكاره»** - رواه الإمام أحمد-.

كذلك جعلت السنة النبوية **الحج إلى بيت الله الحرام** - وفيه التجرد من الدنيا وقوتها، بل وزينتها - والتعايش السلمى حتى مع الهوام وكل أنواع الأحياء والنباتات - جعلت السنة النبوية هذا الحج ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامى، فقال رسول الله ﷺ فيما يرويه طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنه: **«الحج جهاد والعمرة تطوع»** - رواه ابن ماجه - . .

وعندما استأذنت النساء رسول الله ﷺ فى الخروج إلى الجهاد القتالى، قال لهن: **«جهادكن الحج»** - رواه البخارى وابن ماجه والإمام أحمد- . . فجعل الحج- بالنسبة للرجال والنساء- ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامى فى هذه الحياة.

تلك هى حقيقة الجهاد الإسلامى، الذى هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة، فى أى ميدان من ميادين الحياة، على امتداد هذه الميادين واتساعها وتنوعها. . . وليس فقط هو القتال. . . فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة، كما عرفتها ومارستها الكهانة الكنسية الغربية فى صراعها الدامى ضد الإسلام وأمته وحضارته. . . وضد المخالفين لها فى الاعتقاد.

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامى فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه مستطاع لكل المكلفين، وفق القدرات التى امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفى أى ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه - بسائر ميادين العبادات والمعاملات - بينما كان القتال - الذى هو شعبة من شعب الجهاد - مشروطًا بشروط، وله ميادين محددة ضبطها القرآن الكريم فى الآيات التى تحدثت عن القتال.

ولقد أدرك هذه الحقيقة - حقيقة مغايرة الجهاد الإسلامى للحرب الدينية المقدسة، كما عرفتها الكنيسة الأوروبية والحضارة الغربية- أدرك هذه الحقيقة نفر من علماء الغرب، الذين تحلوا بالموضوعية والعمق والإخلاص فى دراساتهم للإسلام. . ومن هؤلاء العلماء كانت المستشرقة الألمانية الدكتورة «سيجريد هونكه» التى كتبت عن هذه الحقيقة من حقائق الجهاد الإسلامى، فقالت:

«إن الجهاد الإسلامى ليس هو ما نطلق عليه - ببساطة- مصطلح الحرب المقدسة. فالجهاد «هو كل سعى مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام فى أنفسنا،

حتى نتمكن فى هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومى المتجدد أبدًا ضد القوى الأمارة بالسوء فى أنفسنا وفى البيئة المحيطة بنا عالميًا.

فالجهاد هو المنبع الذى لا ينقص، والذى ينهل منه المسلم مستمدًا الطاقة التى تؤهله لتحمل مسئوليته، خاضعًا لإرادة الله عن وعى ويقين. إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية، للدفاع بردع كافة القوى المعادية التى تقف فى وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعى إسلامى فى ديار الإسلام»(١٣).

تلك هى حقيقة الجهاد الذى فرضه الله - سبحانه وتعالى - وجعله ذروة سنام الإسلام . . . والذى جاهده المسلمون - ولا يزالون - على امتداد تاريخ الإسلام . . والذى يكون جهادًا كبيرًا عندما يكون فقهًا ووعيًا وحوارًا بالحكمة والموعظة الحسنة، انطلاقًا من القرآن الكريم : ﴿وجاهدهم به جهادًا كبيرًا﴾.

***

ولقد أدرك حقيقة الجهاد الإسلامى الإمام محمد عبده . . فكتب يقول فى تفسير قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٢].

«. . . ربما يقول قائل : إن الآية تفيد أن من لم يجاهد ويصبر لا يدخل الجنة، مع أن الجهاد فرض كفاية :

ونقول : نعم، إنه لا يدخل الجنة من لم يجاهد فى سبيل الحق، ولكن الجهاد فى الكتاب والسنة يستعمل بمعناه اللغوى، وهو احتمال المشقة فى مكافحة الشدائد، ومنه جهاد النفس، الذى روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر. ومن أمثلة ذلك مجاهدة الإنسان لشهواته، لا سيما فى سن الشباب، وجهاده بماله، وما يُبتلَى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

إن لله فى كل نعمة عليك حقًا، وللناس عليك حقًا، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس، فلا بد من جهادها ليسهل عليها أداؤها، وربما يفضُلُ بعض جهاد النفس جهاد الأعداء فى الحرب، فإن الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة صالحة فى الناس أو يدعوهم

إلى خيرهم ـ من إقامة سنّة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة ـ فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلما يصبر عليه أحد. وناهيك بالتصدى لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم، وما الخاصة فى ضلالهم إلا أصعب مراسًا من العامة»![١٤] .

فالجهاد أعم من القتال . . . ولذلك - كما يقول الإمام محمد عبده - فلن يدخل الجنة إلا المجاهدون . . . بينما القتال ليس شرطًا فى النجاة؛ لأنه ليس فرضًا فى كل الحالات، وفى جميع لحظات الحياة ! . . .

***

ـ ٤ ـ

حقيقة القتال فى الإسلام

وإذا كان الجهاد - فى الإسلام - أعم من القتال . . . فإن القتال ـ الذى هو الجهاد العنيف ـ والذى هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التى لا تُحصى للجهاد متميزة ثمرته - وهى القتل - عن الموت الطبيعى . . فالموت : هو فَوْتُ الحياة . . بينما القتل : هو إزالة الروح وإزهاقها ، وفوت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق .

وليس هناك شك - بل ولا غرابة - فى أن نجد فى الإسلام تشريعًا مضبوطًا يجوّز القتال أو يوجبه فى بعض الحالات ، ذلك أن الإسلام دين ودولة . . . وأمة ووطن . . واجتماع ونظام . . . فالدين -فى الإسلام- لا بد لإقامته من وطن يقام فيه ؛ لأن هذا الدين ليس مجرد «تكاليف فردية» يستطيع المكلف بها أن يقيمها بمعزل عن الناس ، أو بإدارة الظهر للناس ، وإنما فيه - إلى جانب التكاليف الفردية- تكاليف اجتماعية لا تؤدى إلا فى أمة وجماعة ونظام ومؤسسات وسلطة واجتماع ، أى لا بد له من وطن ودولة . . . وهذه التكاليف الاجتماعية - والكفائية- هى آكد وأهم من التكاليف الفردية ؛ لأن الإثم فى التخلف عن التكليف الفردى يقع على الفرد فقط ، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعى والاجتماعى - الكفائى- يقع على الأمة جمعاء .

بل إن أغلب التكاليف الفردية -فى الإسلام- تُؤدّى وتُقام فى جماعة ، وثوابها فى الجماعة أضعاف إقامتها خارج الجماعة .

ولهذه الحقيقة - التى تميّز بها الإسلام عن النصرانية . . . التى تتمثل ذروة إقامتها كاملة فى الرهبانية التى تدير الظهر للعالم والدنيا والناس - **كان «الوطن» هو الوعاء الذى بدونه لا تُقام جملة شعائر الإسلام وفرائضه وتكاليفه .**

ولهذه الحقيقة - أيضًا - رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن - بل واجبه- فى أن يعيش حرًا فى وطن حر . . . رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة! . . . فجاء فى القرآن الكريم حديث عن أن الإخراج من الديار معادل ومساو للقتل الذى يُخرج الإنسان من عداد الأحياء:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] . . . وجاء فى القرآن الكريم -كذلك- الإشارة إلى بنود المواثيق التى أخذها الله - سبحانه وتعالى- على بعض الأمم، ومنها نتعلم أن الإخراج من الديار، والحرمان من الوطن، هو معادل لسفك الدماء والإخراج من الحياة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤_٨٥].

ولذلك، جعل القرآن الكريم «استقلال الوطن وحريته» الذى هو ثمرة لوطنية أهله وبسالتهم فى الدفاع عنه، جعل ذلك «حياة» لأهل هذا الوطن. . . بينما عبر عن الذين فرطوا فى استقلال وطنهم بأنهم «أموات»! . . . وجعل من عودة الروح الوطنية إلى الذين سبق لهم التفريط فيها، عودة لروح الحياة إلى الذين سبق وأصابهم الموت والموات!: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣_٢٤٤].

فالذين خرجوا من ديارهم - وليس الذين أخرجوا- لضعف فى وطنيتهم، وجبن عن مقاتلة أعداء وطنهم، هم أموات، مع أنهم ألوف يأكلون ويشربون! «وعودة الوطنية إليهم، واستخلاصهم لوطنهم، هو إحياء لهم بعد الممات!

ولأن هذا هو مقام الوطن وضرورته لإقامة دين الإسلام وشريعته كان الجهاد القتالى واردًا وأحيانًا واجبًا للحفاظ على الوعاء - الوطن - الذى بدونه لا يُقام كامل الإسلام .

وفى تفسير هذه الآيات - على هذا النحو - قرر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] :

«أن معنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم ، وأزال استقلال أمتهم ، حتى صارت لا تعد أمة ، بأن تفرق شملها ، وذهبت جامعتها ، فكل ما بقى من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم ، مدغمون فى غمارهم ، لا وجود لهم فى أنفسهم ، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ، ومعنى حياتهم هو : عودة الاستقلال إليهم! . . إن الجبن عن مدافعة الأعداء ، وتسليم الديار ، بالهزيمة والفرار ، هو الموت المحفوف بالخزى والعار ، وإن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة الملّية المحفوظة من عدوان المعتدين . . . والقتال فى سبيل الله . . . أعم من القتال لأجل الدين ؛ لأنه يشمل - أيضًا - الدفاع عن الحوزة إذا همّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا . . . فالقتال لحماية الحقيقة . . كالقتال لحماية الحق ، كله جهاد فى سبيل الله . . . ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين»(١٥) .

فلا بد لإقامة الإسلام من وطن ، الأمر الذى يجعل القتال لحماية حرية هذا الوطن - التى هى حرية مواطنيه - واردًا فى شريعة الإسلام . . . فالحفاظ على الدين هو ذروة سنام مقاصد الشريعة الإسلامية . . . والحفاظ على حرية الوطن الإسلامى هو الشرط لإقامة الدين ، والقيام بأمانة العمران التى هى المهمة العظمى من وراء استخلاف الله - سبحانه وتعالى - لجنس الإنسان . . . ولذلك ، **وقف الإسلام بالقتال - إذنا . . وأمرًا وتحريضًا - فقط عند :**

١ - الحفاظ على الدين ، وحرية الدعوة إليه ، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه . .

٢ - والحفاظ على الوطن ، وصيانة حريته وحرية أهله من العدوان . .

فالقتال -فى الإسلام- هو الاستثناء الذى لا يجوز اللجوء إليه إلا لمدافعة الذين يفتنون المسلمين فى دينهم . . . أو يخرجونهم من ديارهم . . . ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية هو التجسيد لهذا المنهاج . . .

ففى البداية . . . وبعدما تعرض له المسلمون من أذى فى عقيدتهم وفتنة عن دينهم واضطهاد تصاعد حتى اقتلعهم من وطنهم - مكة - وجعلهم يهاجرون إلى يثرب (المدينة) - بعد هجرة العديد منهم إلى الحبشة - أذن الله - مجرد إذن - للمؤمنين فى القتال . . . ولقد كان الإخراج من الديار، والفتنة فى الدين الأسباب التى ذكرها القرآن الكريم فى كل الآيات التى شرَّعت لهذا القتال .

ففى الإذن بالقتال، يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٨-٤٠] . .

وعندما تطور الحال من «**الإذن**» فى القتال إلى «**الأمر**» به جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سببًا لهذا الأمر بالقتال : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[البقرة: ١٩٠-١٩٢].

فهو قتال دفاعى، ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم فى دينهم، لتحرير الوطن الذى سلبه المشركون من المسلمين ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(١٦) .

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية فى الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس القتال، وإنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل : ١٢٥-١٢٨] .

بل لقد تميز الإسلام - فى هذا الميدان - برفضه فلسفة **«الصراع»** لأنه يؤدى إلى أن يصرع القوى الضعيف، فيزيله، وينهى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التى هى سنة من سنن الله - سبحانه وتعالى - فى سائر المخلوقات . . . رفض الإسلام فلسفة «الصراع» وأحل محلها فلسفة **«التدافع»** الذى هو حراك يعدّل المواقف، ويعيد التوازن والعدل، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت : ٣٣-٣٥] .

إن الإسلام لا يريد «الصراع» الذى ينهى «الآخر» ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة : ٧، ٨] . . . وإنما «التدافع» الذى هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذى يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين .

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التى اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلة جُبل عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه . . . وفى مواجهة هذه الفلسفات - التى ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقًا من طرق التقدم والتطور! - **يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه، وليس القاعدة . . . إنه ضرورة تُقدر بقدرها : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة : ٢١٦]، وليس هناك «مكتوب» - مفروض، وُصفَ فى القرآن الكريم بأنه «كُرْه» سوى القتال !**

ولقد بينت السنة النبويةَ - وأكدت - هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال، فقال رسول الله ﷺ : **«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله»** - رواه الدارمى - .

***

وحتى هذا القتال -الذى كُتب على المسلمين وهو كُره لهم - والذى وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة، وحرية الدعوة من الفتنة - التى هى أكبر من القتل المادى - ولحماية حرية الوطن - الذى بدونه لا يُقام الإسلام - . . . حتى هذا القتال - الاستثناء والضرورة - قد وضع الإسلام ودولته له «دستوراً أخلاقياً» تجاوز فى سُموّه كل المواثيق الدولية التى تعارف عليها المجتمع الدولى نظرياً - (!!) - بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقى لهذا القتال .

وفى قواعد أخلاقيات دستور الفروسية الإسلامية هذا يروى الراشد الخامس عمر ابن عبد العزيز (٩١-١٠١هـ/ ٦٨١-٧٢٠م) -رضى الله عنه- وهو على رأس السلطة التنفيذية - الخلافة - وليس فى صفوف المعارضة! - يروى فيقول : «إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم : «**اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلّوا** (أى : لا تخونوا) **ولا تغدروا، ولا تُمَثّلوا** (أى : لا تمثلوا بجثث القتلى) **ولا تقتلوا وليداً**» - رواه مسلم ومالك فى الموطأ .

ولقد صاغ أبو بكر الصديق (٥١ ق . هـ -١٣هـ/ ٥٧٣-٦٣٤م)- رضى الله عنه- وهو رأس الدولة - قواعد هذا الدستور الأخلاقى للقتال والحرب، فى وثيقة إسلامية، عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبى سفيان (١٨هـ/ ٦٣٩م) وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين فى الشام، فقال - فى وثيقة الوصايا العشر - : «**إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله - الرهبان - فدعهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له . . . وإنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة. ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن**» - رواه مالك فى الموطأ .

فكانت هذه -«وثيقة الوصايا العشر»- دستور الآداب الإسلامية وأخلاقيات القتال، عندما يُفرض على المسلمين القتال .

***

أما المرجفون الذين يزعمون أن سورة «براءة - التوبة» قد حضت على قتال المخالفين كافة للمسلمين . . . فإن فقه آيات هذه السورة - التي يغمزون ويلمزون فيها - يرد دعواهم هذه إلى نحورهم . . . ففي هذه الآيات يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١-١٦].

يرجف كثير من المرجفين - مستشرقين وعملاء لهم - حول هذه الآيات، زاعمين أنها تحض على القتال والتربص بالمشركين فى كل مكان، وعلى القتل والإرهاب لهؤلاء المشركين . . . حتى لقد قال أحد عملاء وضحايا التخريب - متسائلاً تساؤل الإنكار والاستنكار- : **«لماذا يستشهد المسلمون دائمًا بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تبرز الوجه السلمى المتسامح للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التى تحض على القتال والقتل والإرهاب؟! . . . مع أن النصوص التى تحض على القتال والتربص بالمشركين نزلت بعد النصوص التى تؤكد التسامح والمساواة؟! . . .»**(١٧).

وهذا الإرجاف والغمز واللمز - بل والطعن - يجهل ويتجاهل الحقائق الصُّلبة التى تفصح عنها هذه الآيات - من سورة براءة - **فهى تميّز فى المشركين بين توجهات ثلاثة:**

١- مشركون معاهدون للمسلمين، يحترمون العهود . . . والآيات تدعو المسلمين إلى الوفاء بالعهود لهؤلاء المشركين ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

٢- ومشركون محايدون، لم يحددوا موقفًا - مع أو ضد- ويريدون أن يعلموا الحقيقة ليتخذوا لهم موقفًا . . . وهذه الآيات تطلب من المسلمين إجارة هؤلاء المشركين، وتأمينهم، ووضع الحقائق أمام بصائرهم وأبصارهم . . . ثم تركهم أحرارًا، بل وحراستهم حتى يبلغوا مأمنهم، ليقرروا ما يقررون ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٣- أما الفريق الثالث من المشركين، فهم الذين يقاتلون المسلمين، والذين احترفوا نقض العهود مع المسلمين ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠] . . . ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ﴾ [التوبة: ١٢] . . . **لقد** ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢] .

فليس هناك تعميم لقتال كل المشركين فى هذه الآيات - التى تعلق بها ويتعلق المرجفون الذين يتهمون الإسلام بالقتل والإرهاب - . . . لأن التربص والقتال فى هذه الآيات ليس لمطلق المشركين، ولا لكل المخالفين، وإنما هو رد لعدوان المعتدين الذين نقضوا العهود ونكثوا الأيمان وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم **﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [التوبة: ١٣] . .

فمعيار الإسلام ودولته، فى السلم والسلام أو الحرب والقتال، ليس «الإيمان» و«الكفر» ولا «الاتفاق» و«الاختلاف» وإنما هو التعايش السلمى بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين، بالفتنة فى الدين أو الإخراج من الديار . . . وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: **﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الممتحنة: ٧-٩].

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار فى العلاقات مع المخالفين . . . فكان اليهود - بدولة المدينة المنورة - جزءاً من الرعية والأمة . . . ونص دستور هذه الدولة الإسلامية على أن **«لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . . ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَر عليهم . . . وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم . . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . . . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه . . . فيهود أمة مع المؤمنين . . . »**(١٨) .

وبالنسبة لعموم النصارى، قررت المواثيق النبوية فى هذه الدولة الإسلامية الأولى: **«أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»**(١٩) .

❊❊❊

* أما الجزية التى فرضتها الدولة الإسلامية على الذين دخلوا فى دولتها ولم يدخلوا فى دينها، فإنها لم تكن اختراعًا إسلاميًا، وإنما كانت ضريبة معروفة فيما سبق الإسلام من دول وقوانين. . . فجاء الإسلام لينتقل بها من إطار «التمييز - الظالم» إلى إطار «العدل»، الذى هو فريضة إسلامية، والروح السارية فى حضارة الإسلام.

فالخراج على الأرض: ضريبة تتساوى فيها الرعية، المسلمون منها وغير المسلمين.

وضريبة الجندية وحماية الدولة والدفاع عن رعيتها وأمتها- المسلمين منها وغير المسلمين - كان المسلمون هم القائمين الأساسيين بأدائها، لاعتبارات أمنية اقتضتها المراحل الأولى من الفتوحات وتكوين الدولة . . . وحتى لا يجبر غير المسلمين على الانخراط فى جيش يخوض معارك لا تقتنع بها ضمائرهم وثقافتهم، التى لم تكن قد توحدت مع الثقافة الإسلامية فى تلك المرحلة المبكرة من تكوين الدولة الإسلامية. . . فكانت هذه الجزية بدلاً من الجندية، ولم تكن بدلاً من الإيمان بالإسلام. . . ويشهد على ذلك أنها لم تفرض إلا على القادرين على أداء الجندية، المالكين لما يدفعونه ضريبة لهذه الجندية . . . ولو كانت بدلاً من الإيمان بالإسلام لوجبت على كل المخالفين فى الدين. . . ولم يكن أمرها كذلك، فهى لم تفرض على الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا العجزة ولا المرضى من أهل الكتاب، وهؤلاء جميعًا مخالفون للمسلمين فى الدين . . . كما أنها لم تفرض على الرهبان ورجال الدين، وهم من هم مخالفة فى الدين ! . . . وكل الفقهاء المسلمين -باستثناء فقهاء المالكية- يقولون : إنها «بدل عن النصر والجهاد»[٢٠].

ولقد شهدت على ذلك - أيضًا- التطبيقات الإسلامية لضريبة الجزية هذه. .

* لقد فرضت على القادرين - بدنيًا وماليًا- من نصارى نجران . . . وفى نظير ذلك كان إعفاؤهم من الجندية . . فنص عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران على أنه : **«لا يُكَلَّف أحدٌ من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران . . . وأن يكون المسلمون ذُبّابا عنهم، وجوارًا من دونهم»[٢١].**

* وفى البلاد التى آثر فيها غير المسلمين أداء ضريبة الجندية مع المسلمين، لم تفرض عليهم الجزية، بل كانوا متساوين مع المسلمين فى القتال وفى نصيبهم من غنائم هذا القتال .. حدث ذلك فى «جرجان»، ونصت معاهدة القائد «سويد بن مقرن» مع أهلها عليه، إذا جاء فيها: **«ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضًا من جزائه»**[٢٢] . . . وحدث ذلك مع أهل «أذربيجان»، ونصت عليه معاهدة القائد «عقبة بن فرقد» - عامل عمر بن الخطاب (٤٠ق. هـ- ٢٣هـ ٥٨٤-٦٤٤م) - مع أهلها، إذ جاء فيها: **«. . . ومن حُشر -أى استدعى للقتال- منهم فى سنة وُضع عنه جزاء - أى جزية - تلك السنة. . .»**[٢٣] . . .

وحدث ذلك - أيضًا - مع أهل «أرمينية» ونصت عليه معاهدة القائد «سراقة بن عمرو» (٣٠هـ -٦٥٠م) - عامل عمر بن الخطاب - مع أهلها، إذ نصّت المعاهدة **«على أن يوضع - يسقط- الجزاء - الجزية- عمن أجاب إلى ذلك الحشر - (الحشد للقتال) ـ والحشر عوض عن جزائهم - جزيتهم- ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء - الجزية. . .»**[٢٤] . . .

وحدث ذلك -أيضًا- مع «الجراجمة»، سكان الجرجومة، فى شمالىّ سوريا، بالقرب من أنطاكية، عندما حاربوا، وهم على نصرانيتهم، ومعهم حلفاؤهم وأتباعهم، فى جيش المسلمين، تحت قيادة «حبيب بن مسلمة الفهرى» (٢ق. هـ- ٤٢هـ ٦٢٠-٦٢٢م) . . . وحدث ذلك - أيضًا- مع النصارى من أهل «حمص»، عندما حاربوا فى صفوف جيش «أبى عبيدة بن الجراح» (٤٠ق. هـ- ١٨هـ ٥٨٤-٦٤٤م) فى موقعة «اليرموك» ضد الروم البيزنطيين[٢٥] . . وحدث ذلك - أيضًا- مع بنى تغلب- وهم نصارى- أسقطها عنهم عمر بن الخطاب «لأنهم عرب يأنفون من الجزية»[٢٦].

ويزيد من هذه الحقيقة وضوحًا - حقيقة أن الجزية كانت بدلاً من الجندية ـ على القادر على الجندية وعلى دفعها ـ وليست بدلاً من الإيمان بالإسلام، ومن ثم فلم تكن سببًا فى الضغط على الدخول فى الإسلام -ما جاء فى مفاوضات «شهربراز» ملك «الباب» مع القائد المسلم «عبد الرحمن بن ربيعة» (٣٢هـ- ٦٥م) عند عقد الصلح

بينهما سنة ٣٢هـ، فلقد قال «شهر براز»: «أنا اليوم منكم، ويدى مع أيديكم، وصغوى - «ميلى» - معكم . . . وجزيتنا إليكم: النصر لكم والقيام بما تحبون. . . ». . ولقد أجيب إلى طلبه بعد مشاورة القائد «عبد الرحمن بن ربيعة» مع «سراقة بن عمرو» (٣٠هـ-٦٤٥م). . .

ولقد استمر ذلك سُنة متبعة فى علاقات الدولة الإسلامية بشعوب البلاد المفتوحة. . . حتى ليقول الطبرى - عن إسقاط الجزية عن الذين انخرطوا فى الجندية من غير المسلمين- : «وصار ذلك سُنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين. . »[٢٧].

***

تلك هى حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال . . . إنه الاستثناء لا القاعدة . . . وهو الاستثناء المكروه. . . ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعًا عن حرية الاعتقاد والضمير . . . وحرية الوطن، الذى بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الدينى على النحو الذى أراده الله -سبحانه وتعالى- فى شريعة الإسلام . . .

وإذا كان بعض المفترين لا يزال يردد أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف والقتل والقتال. . . فإننا نلفت أنظارهم إلى أن كل المعارك التى دارت فى الفتوحات الإسلامية إنما كانت ضد جيوش الغزو والاحتلال الرومانية والفارسية، ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الفتح التحريرى الإسلامية وبين أهل البلاد المفتوحة. . . بل لقد قاتل أهل البلاد المفتوحة مع الجيوش الإسلامية - وهم على دياناتهم القديمة- ضد الروم والفرس . . . وشهد أساقفتهم - الذين عاصروا هذه الفتوحات وشهدوها- على أن الفتوحات الإسلامية قد كانت إنقاذًا لهم ولدياناتهم من الإبادة التى مارسها ضدهم المستعمرون الرومان. . . فقال الأسقف «يوحنا النقيوس» -وهو شاهد على الفتح الإسلامى لمصر- : «إن الله الذى يصون الحق-لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرؤهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - (العرب المسلمين-أبناء إسماعيل -عليه السلام-) .

ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر، وكان عمرو بن العاص (٥٠ق. هـ-٤٣هـ ٥٧٤-٦٦٤م) يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئًا

من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام. . .»[٢٨] .

ويؤكد على هذه الحقيقة - أن القتال فى الفتوحات الإسلامية إنما كان ضد الجيوش الغازية التى استعمرت الشرق وقهرته عشرة قرون. . . وأنه كان تحريراً لأوطان الشرق وضمائر شعوبه -الأسقف «ميخائيل السريانى» فيشير إلى أن الكنيسة المصرية - اليعقوبية- كانت سرية، لا يعترف بها الرومان! كما كانت كنائسها مغتصبة من قبل المذهب البيزنطى - الملكانى- وأنها قد ظلت كذلك حتى حررها الفتح الإسلامى، فكان بقاؤها وحياتها «هبة الإسلام»! . . يشهد هذا الأسقف على ذلك فيقول: **«إن الإمبراطور الرومانى لم يسمح لكنيستنا بالظهور - أى لم يكن معترفًا بها! -ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه.**

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»[٢٩] .

ولقد حرر الفتح الإسلامى كنائس مصر من الاغتصاب البيزنطى، لا ليجعلها مساجد إسلامية، وإنما ردها إلى نصارى مصر . . . وأعطى عمرو بن العاص الأمان للبطرك الوطنى «بنيامين» (٣٩هـ ٦٥٩م) فعاد بعد ثلاثة عشر عامًا من الهرب! . . عاد إلى شعبه، وتسلم كنائسه . . . وطاف بها فى فرح عبر عنه الأسقف «يوحنا النقيوسى» بقوله: **«ودخل الأنبا بنيامين بطرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الرومان ثلاثة عشر عاما، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها . . . وكان كل الناس يقولون: هذا النفى، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين . . . وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر . . .»**[٣٠] .

وغير شهادات هؤلاء الشهود الثقات على مقاصد القتال فى الفتوحات الإسلامية. شهد الكثيرون من علماء الغرب على الانتشار السلمى للإسلام . . . ومن هؤلاء العلماء المستشرقة الألمانية الحجة الدكتورة «سيجريد هونكه» التى كتبت تقول:

« . . . اليوم، وبعد انصرام أكثر من ألف عام، لا يزال الغرب النصرانى متمسكًا بالحكايات المختلقة الخرافية التى كانت الجدات يروينها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية، بعد موت محمد، نشرت الإسلام «بالنار وبحد السيف البتار» من الهند إلى المحيط الأطلنطى، ويلح الغرب على ذلك بكافة الوسائل : بالكلمة المنطوقة، أو المكتوبة، والجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفى الرأى العام، بل فى أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام .

. . . ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة : ٢٥٦] : تلك هى كلمة القرآن الملزمة . . فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامى، وإنما بسط سلطان الله فى أرضه، فكان للنصرانى أن يظل نصرانيًا ولليهودى أن يظل يهوديًا، كما كانوا من قبل . ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك . . . ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبِيَعهم وصوامعهم وكنائسهم . . .

لقد كان أتباع الملل الأخرى -وبطبيعة الحال من النصارى واليهود- هم الذين سعوا سعيًا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين، ولقد ألحوا فى ذلك شغفًا وافتتانًا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماء عربية وثيابًا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربى، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين، لقد كانت الروعة كامنة فى أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربى، والسمو والمروءة والجمال، وباختصار : السحر الأصيل الذى تتميز به الحضارة العربية ـ بغض النظر عن الكرم العربى والتسامح وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم . . . إن سحر أسلوب المعيشة العربى ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسى «ڤولشير الشارتى» : «وها نحن الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين! . . . أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب؟! بعدما أفاء الله علينا، وبدّل الغرب إلى الشرق؟!» بهذا انتشر الإسلام . . . وليس بالسيف أو الإكراه . . .»[٣١] .

وشهد بذلك -أيضًا- المستشرق الإنجليزى البارز «ألفريد جيوم- A. Guil gaume» (١٨٨٨-١٩٦٥م) فقال : «لقد استُقبل العرب - على الأغلب-

فى سوريا ومصر والعراق بترحاب؛ لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطورى، وأنقذوا المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذى كانت تعانيه من الحكومة المركزية - البيزنطية - وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأغراب»[٣٢] .

تلك هى حقيقة القتال فى الإسلام . . . وتلك هى مقاصده:

- رد العدوان عن حرية الاعتقاد والضمير، حتى لا تكون فتنة . . . ويكون الدين والتدين كله لله . . .

- رد العدوان عن حرية الوطن، الذى بدون حريته لا يمكن أن يكون هناك مواطن حر . . . والذى بدون حريته لا يمكن أن تتحقق حرية إقامة فرائض الإسلام.

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد . . . وهو الاستثناء -لا القاعدة- والضرورة- التى تُقَدَّر بقدرها . . . وهو الفريضة المكروهة . . . وليس الجِبِلَّة التى تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام !

****

- ٥ -

حقيقة الإرهاب

وإذا كان غريبًا - بل وعجيبًا- أن تشن أمريكا - منذ «قارعة» ١١ سبتمبر ٢٠٠١م -حربًا عالمية على ما تسميه «الإرهاب» دون الاتفاق على معنى هذا «الإرهاب»!! بل وفى ظل الإصرار على رفض عقد مؤتمر دولى تتفق فيه الحضارات العالمية وثقافاتها على تعريف لهذا «الإرهاب»!!

إذا كان ذلك غريبًا وعجيبًا - بل ومريبًا- فإن السر فى هذا الموقف الغريب والعجيب والمريب هو أن هذه الحرب العالمية الجديدة قد أرادها البعض حربًا على «الإسلام» تحت عنوان «الإرهاب»!

ويشهد على هذه الحقيقة - التى لم يعد بالإمكان إخفاؤها -:

١- أن الرئيس الأمريكى «چورج بوش الصغير» قد وصف هذه الحرب فى ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م -أى قبل بدء التحقيق فى «قارعة» ١١ سبتمبر - بأنها «حملة صليبية» أى حرب دينية مقدسة!

٢- ولم تفلح محاولات الاعتذار عن هذا الوصف، بالقول إنه مجرد «زلة لسان».. حتى إن مدير إذاعة الڤاتيكان «الكاردينال باسكوالى بورجوميو» قد أكد دقة هذا الوصف، وطبيعة هذه الحرب الأمريكية، فقال: **«فى الوقت الذى يدعو الڤاتيكان إلى التعقل، ويشجع العمل الديبلوماسى، ويدافع عن الحق الدولى - أى الشرعية الدولية - نرى فى الجانب الآخر قوة عظمى- أمريكا - تقودها إدارة خولت لنفسها مهمة إنقاذية - مقدسة - واتخذت لهجة ومواقف صليبية»!**[٣٣]

٣- كما عبر بابا الفاتيكان «يوحنا بولس الثانى» (١٩٢٢-٢٠٠٥م) عن: **«خشيته من أن تثير الحرب الأمريكية على العراق صراعًا دينيًا . . . بين المسيحيين والمسلمين»**.

٤- وقال الكاردينال «بيو لاچى» - مندوب البابا فى المساعى الديبلوماسية لتجنب الحرب على العراق- أوائل سنة ٢٠٠٣م-: **«إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام. . .»**[٣٤].

٥- وقال «الأنبا يوحنا قلته» - نائب البطرك الكاثوليكى فى مصر- : **«إن بوش يستخدم المسيح درعًا والصليبية ثوبًا للدفاع عن مصالح أمريكا المادية . . . وإنه كان يقصد تمامًا معنى عبارة «الحملة الصليبية» . . ولم تكن أبدًا زلة لسان. .»**[٣٥].

٦- ووصف الرئيس الأمريكى الأسبق «چيمى كارتر» أيديولوچية الإدارة الأمريكية التى شنت هذه الحرب، بأنها **أيديولوچية «المؤتمر المعمدانى للجنوب الأمريكى - ساوثيرن بابتيست كونفنشون»- المعروفة بالالتزام تجاه إسرائيل من منطلقات ثيولوچية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم الدينونة»**[٣٦].

٧- وأعلن السناتور الأمريكى «إدوارد كنيدى» والسناتور «باتريك ليهى»: **«إن الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب «بحماسة مسيحية»!**[٣٧].

٨- ووصفت مجلة «نيوزويك» - الأمريكية- قائد هذه الحرب- الرئيس «بوش- الصغير» -بأنه **«حامل البشارة . . . الذى يؤمن بأن حربه على العراق ستكون حربًا عادلة وفق المفهوم المسيحى كما شرحه القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، وفصّله كل من توما الأكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤م) ومارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) وآخرون. . . وأنه - بوش- عندما استخدم مصطلح «الأشرار» قد نبش هذه الكلمة مباشرة من المزامير . . . وأنه يفكر فى سياسة خارجية تستند إلى الإيمان المسيحى . . . ويفكر فى حرب باسم الحرية المدنية- بما فى ذلك الحرية الدينية- فى القلب القديم للإسلام العربى. . . ويحظى بدعم من قاعدته فى الجناح السياسى للمؤتمر المعمدانى الجنوبى، من أمثال القساوسة «ريتشارد لاند»، و«فرانكلين جراهام» - الأب الروحى**

لبوش- والذى سب رسول الإسلام، ويندد بالإسلام باعتباره إيمانًا عنيفًا فاسدًا! . . . ولا يخفى- مع المبشرين الإنجيليين- رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية-لا سيما فى بغداد. . . »!![٣٨].

فى الوقت الذى شهد فيه هؤلاء الشهود ـ ومعهم كثيرون من أهلها - على طبيعة هذه الحرب العالمية، التى شُنت على الإسلام، عقب «قارعة» ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. . . شهد كذلك كثيرون من المفكرين الاستراتيجيين الذين يخططون لصناعة القرار الأمريكى على ذات الحقيقة . . . حقيقة أن هذه الحرب ليست على «الإرهاب»، إنما هى حرب داخل الإسلام، ليتخلى عن طبيعته ومنهاجه الشامل للدين والدولة، والسياسة والقانون، والقيم والأخلاق، والدنيا والآخرة. . . وذلك حتى يقبل الإسلام -بدلاً من ذلك- بالقيم الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية. . . والمبدأ المسيحى الذى يدع ما لقيصر لقيصر وما لله .

ومن بين عشرات الشهادات الأمريكية والغربية على هذه الحقيقة، حقيقة أنها حرب على الإسلام، تحت دعاوى «الإرهاب» -الذى حرصوا على عدم تعريفه ـ. . . من بين عشرات الشهادات نختار -مراعاة للمقام- شهادة المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فرانسيس فوكوياما» التى يقول فيها - بصريح العبارة- : **«إن الصراع الحالى ليس ببساطة ضد الإرهاب . . . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية . . . وضد الدولة العلمانية. . . وهذه الأيديولوچية الأصولية تمثل خطرًا أكثر أساسية - فى بعض جوانبه- من الخطر الذى شكلته الشيوعية . . . والمطلوب هو حرب داخل الإسلام. . . حتى يقبل الحداثة الغربية. . . والعلمانية الغربية . . . والمبدأ المسيحى: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله. . . »!**[٣٩].

لهذه الحقيقة - حقيقة أنها حرب على الإسلام، الرافض للحداثة الغربية، والقيم الغربية، والعلمانية الغربية. . . وليست حربًا على الإرهاب -الذى اتخذ- فى هذه الحرب- وظيفة الستار لإخفاء الحقيقة والتمويه عليها- كان الحرص- طوال تلك السنوات- على رفض الاقتراحات العربية والإسلامية التى تلح على ضرورة عقد مؤتمر دولى لتحديد معنى «الإرهاب» وللتمييز بينه وبين «الجهاد الإسلامى» و«القتال

المشروع» لتحرير الأوطان من الاستعمار . . . الأمر الذى يزيد من أهمية وضرورة التحديد والتحرير للمعنى والمضمون والمفهوم الإسلامى للإرهاب .

***

إن المفهوم الغربى لمصطلح «الإرهاب ـ Terror» والذى يعنى استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين، ولإكراههم على قبول ما لايريدون، وخصوصاً عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أى: إرهاب الدولة الذى يبث الرعب فى نفوس المحكومين[40] . . . إن هذا المفهوم الغربى للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم هذا المصطلح فى لغتنا العربية . . . وفى القرآن الكريم - الذى هو كتاب العربية الأول . . . وديوان شريعة الإسلام ـ . . .

بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أى منها فى الدعوة إلى شريعة أى دين من تلك الديانات .

* فمنهاج الدعوة إلى اليهودية فى شريعة موسى - عليه السلام - هو «القول اللين»، وليس العنف والحرب، والقتال والإرهاب: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٢-٤٧].

ولأن موسى - عليه السلام - لم يقم دولة، ولم يقد جيشاً، ولم يخض حرباً ولا قتالاً . . . وإنما ولد ونشأ وبعث ومات ودفن فى مصر . . . فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أى إكراه أو عنف أو إرهاب . . .

* وكذلك الحال مع النصرانية التى جاء بها عيسى ابن مريم - عليه السلام - فهى شريعة الصوفية المسالمة، والسلام الصوفى، التى بلغت فى السلام والمسالمة حدوداً ومُثلا ربما عزت على التطبيق فى نطاق هذا العالم .

ولذلك قال المسيح : إن مملكته ليست فى هذا العالم! . . . فبراءة النصرانية - ومنهجها فى الدعوة- من العنف والإكراه والإرهاب الذى يروّع الآمنين، براءة لا تحتاج إلى كثير حديث . . .

* وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية - فى الدعوة إلى الله- فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهى فى الدعوة إلى الإيمان الدينى . . منهاج الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن. . . لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذى يثمر إيمانًا وتصديقًا قلبيًا يبلغ مرتبة اليقين . . . بينما الإرهاب -بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون- هو سبيل النفاق- الذى هو أشد سوءًا من الشرك الصراح، والكفر البواح- وليس سبيل الإيمان بأى حال من الأحوال . . .

***

أمام أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة فى القرآن الكريم -بسورة الأنفال- إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل -هذا إذا حسنت النوايا. . . . وساء الفهم- هو فى وقوفهم عند المصطلح، مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح فى القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربى الذى شاع ويشيع الآن فى دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام . . . ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التى ورد فيها هذا المصطلح - بسورة الأنفال- ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التى ورد فيها هذا المصطلح - ومشتقاته- بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربى وسياقه القرآنى، لما تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب - بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه- . . .

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم فى دينهم، وإخراجهم من ديارهم، وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة، رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان. . . فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف- أى يردع- هؤلاء الذين مردوا على الخيانة، ونقض العهود، والغدر والعدوان. . . ما يردعهم عن هذه الخيانة وهذا العدوان . . .

يخاطب الله -سبحانه وتعالى- رسوله ﷺ في هذه الآيات فيقول:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٨-٦٣].

فمعنى الإرهاب -هنا- هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين، كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين... وهو تخويف يثمره إعداد القوة الرادعة... وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي أنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال... فهو كالعقوبة الرادعة، إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها.. ولا علاقة لهذا الإرهاب -بهذا المعنى- بترويع الآمنين، وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه -الذي هو معنى مصطلح «الإرهاب - Terror» في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفييتي -إبان الحرب الباردة... في منتصف القرن العشرين -للسلاح - الرادع - النووي والهيدروچيني، هو الذي أرهب -وردع- أمريكا وأخافها من العدوان الذري على السوفييت... فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية... وكذلك الحال مع امتلاك پاكستان للرادع النووي، هو الذي جعل استخدام الهند لسلاحها النووي ضد پاكستان أمراً مستحيلاً... بل لقد فتح توازن الردع النووي نوافذ السلام بين البلدين... ولو كانت اليابان - سنة ١٩٤٥م -تمتلك الرادع النووي لأرهبت وأخافت أمريكا، ولنجت هيروشيما ونجازاكي من الكارثة النووية التي حاقت بهما في ذلك التاريخ!...

وهنا يكون الإرهاب -بمعنى التخويف الرادع للأعداء- هو الضمان لتحقيق الأمن والسلام للجميع.

***

ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية - مع السياق الذى وردت به آيات سورة الأنفال- معنى مصطلح الإرهاب فى العربية -لغة القرآن الكريم- . . . .

ونحن عندما نعود إلى «الراغب الأصفهان» فى كتابه: (المفردات فى غريب القرآن) نجد أن معنى الإرهاب - فى القرآن ولغته العربية- هو على الضد من العنف الذى يروّع الآمنين ويرعبهم . . . فهو من «**الرهبة، بمعنى المخافة، مع تحرّز واضطراب**» .

وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذى يروّع الآمنين ويرعبهم ! . . . وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التى وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح - وتصريفاته اللغوية- : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] أى للذين يخافون ربهم ويخشونه .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أى: خافونى واخشونى، ولا تخشوا أحدًا سواى .

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] أى : أفردوا الله -سبحانه وتعالى- بالمراقبة والخشية؛ لأنه المتفرد بالألوهية وحده لا شريك له . .

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٦] . . . أى : أخافوهم خوفًا شديدًا .

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن

شاطئ الوادِ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين (٣٠) وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين (٣١) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ [القصص: ٢٩-٣٢]
أي: من الخوف.

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون (١١) لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون (١٢) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (١٣) لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشر: ١١-١٤] أشد رهبة: أشد تخويفا.

﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين (٨٩) فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء: ٨٩ـ٩٠]. .. ﴿رغبا ورهبا﴾: أي رجاء رحمتنا، وخوفا من عذابنا.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ [التوبة: ٣٤]. ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [المائدة: ٨٢ـ٨٣].

... ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٠) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

[الحديد: ٢٦ـ٢٧].

فالرهبان: هم الذين يبالغون فى الخوف من الله وفى خشيته. . . والرهبانية: هى المبالغة فى الخشية من الله. . . وليس فى أى من مضامين هذه المصطلحات القرآنية- يرهبون. . . فارهبون. . . تُرهبون. . . استرهبوهم. . الرهْب. . . الرهبة. . . الرهبان. . . الرهبانية - ما يشى من قريب أو بعيد للمعنى الغربى للإرهاب. . . معنى: العنف الذى يروّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

***

وإذا كان بعض المرجفين المفترين يذهبون - رغم هذه الحقائق التى قدمناها -إلى اتهام الإسلام بالتأسيس للإرهاب. .

فيقول الزعيم «الدينى - السياسى» القس الأمريكى «بات روبرتسون» - مؤسس جماعة «التحالف السياسى المسيحى» - التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى، والحزب الجمهورى، والإدارة الأمريكية -وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية. . . والأب الروحى للرئيس «بوش - الصغير» الذى وُلد -بوش- على يديه ولادته المسيحية الجديدة. . .! . . . يقول هذا القس:

«إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف. . . وإنه بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية، فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلامى من آخرين. . .»!!(٤١).

ويقول المستشرق الصهيونى الأمريكى «برنارد لويس»:

«إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب. . . فالنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة اليهودية/ المسيحية - الغربية- وآيات القرآن تصدّق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين . . . وهذه الحرب هى حرب بين الأديان»!![42].

وتقول «مارجريت تاتشر» - رئيسة وزراء انجلترا الأسبق-:

«إن تحدى الإرهاب الإسلامى الفريد لا يقف عند أسامة بن لادن، وإنما يشمل حتى الذين أدانوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر . . . على أمريكا . . . والذين انتقدوا أسامة بن لادن وطالبان، لكنهم يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب»!![43]

إذا كان بعض المفترين قد اتهموا الإسلام بالتأسيس للإرهاب -بمعنى قتل الأبرياء وترويع الآمنين- ثم فضحتهم أقلامهم وألسنتهم عندما اعتبروا «رفض القيم الغربية. . . ومعارضة الأطماع الغربية» إرهابًا وعنفًا دمويًا!!! فإننا نلفت أنظارهم إلى «النفاق الفكرى» الذى جعلهم يتهمون «الضحية» ويبرءون «الجناة»!! نقول لهم:

- ألم تروا الممارسات التى تتعرض لها شعوب إسلامية كثيرة، قد غدت ضحايا وفرائس للعنف الغربى الصهيونى. . . فى فلسطين. . . والعراق. . . والشيشان. . . وتايلاند. . . وبورما . . . والفيليبين. . . وغيرها من بلاد الإسلام؟!

- إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم، وتحويلهم إلى لاجئين، هو عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين - وأغلب اللاجئين على النطاق العالمى هم من المسلمين!!

- وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع يدنا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافى والسياسي والدينى والحضارى الذى مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ:

- عشرة قرون من الغزو والقهر الإغريقى / الرومانى / البيزنطى - من «الإسكندر الأكبر» (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) - فى القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى «هرقل» (٦١٠-٦٤١م)- فى القرن السابع للميلاد- . . .

- وقرنان من الحروب الصليبية (٤٨٩-٦٩٠هـ-١٠٩٦-١١٩١م).

- وخمسة قرون هى عمر الغزوة الغربية الحديثة - التى بدأت منذ إسقاط غرناطة (٨٩٧هـ-١٤٩٢م) بالالتفاف حول العالم الإسلامى . . . ثم استعمرت سائر أقطار الإسلام - وهى الغزوة التى نعالج هيمنتها حتى هذه اللحظات! . .

- وإن نظرة على خريطة الشرق وعلى خريطة الغرب ستضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على الحقيقة التى تقول: أين هو الغزو والاحتلال والاستغلال الذى يروع الآمنين ويرهب الأبرياء؟!

- إن القواعد العسكرية الغربية تملأ ديار الإسلام .

- ومئات الآلاف من الجنود الغربيين يحتلون الكثير من أوطان عالم الإسلام .

- ومئات الشركات الغربية العابرة للقارات والجنسيات تنهب ثروات عالم الإسلام .

بينما تخلو خريطة الغرب من أى وجود للإسلام أو نفوذ للمسلمين . . . وحتى الأفراد المسلمين الذين يعيشون فى المجتمعات الغربية قد غدوا - وخاصة بعد «قارعة» سبتمبر ٢٠٠١م - ضحايا لألوان من التمييز والترويع والسجن والاعتقال «بأدلة» سرية لا تعلن، ولا يعرفها حتى المحامون!! . . . واعتقالات مؤبدة مدى الحياة، دونما إعلان لسبب الاعتقال!! . . . فقط للاشتباه أو لأنهم مسلمون!! . . الأمر الذى يذكرنا بكلمات المستشرق الفرنسى «جاك بيرك» (١٩١٠-١٩٩٥م) التى قال فيها - عن تاريخ علاقة الغرب بالإسلام - :

«إن الإسلام الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذى يدين به أزيد من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافيًا، وتاريخيًا، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم . . . قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب:

ابن العم المجهول . . .

والأخ المرفوض . . .

والمنكور الأبدى . . .

والمبعد الأبدى . . .

والمتهم الأبدى . . .

والمشتبه فيه الأبدى . . .»[٤٤].

فأين هو الإرهاب الذى يروّع الأبرياء والآمنين ؟!

ومن هم الذين يقننون ويمارسون هذا اللون من الإرهاب؟!

- وإذا كان «التراث اليهودى» - وليست شريعة موسى -عليه السلام- قد غدت مكونًا من مكونات الحضارة الغربية -التى تمارس مؤسساتها الإمبريالية - وليس إنسانها- هذه الممارسات مع الشرق الإسلامى . . . ومع المسلمين . . . فإننا نقرأ فى هذا التراث اليهودى القديم دعوة إلى إبادة «جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . . . وأكل كل الشعوب أكلاً . . . دون أن تقطع لهم عهداً» ولا تشفق عيناك عليهم . . . بل تمحو ذكراهم من تحت السماء - مثل العماليق -!!» - سفر التثنية . إصحاح ٧ : ١-٦ ، ١٤-١٦ ، إصحاح ٢٠ : ١٠-١٦ ، إصحاح ٢٥ : ١٩ . . .

كما نقرأ بهذا «الفكر» - فى عصرنا الراهن - الفتاوى الحاخامية التى تضع هذا «التراث الدموى» فى الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين . . . وذلك من مثل فتوى الحاخام الصهيونى «العقيد . أ. فيدان (زيمبل)» التى يقول فيها للجنود الصهاينة المحتلين للضفة الغربية :

«إن الهالاكاه - الشريعة- تحض على قتل حتى المدنيين الطيبين»!![٤٥].

فأين نحن، وأين العالم من هذا الإرهاب الذى يروّع الآمنين، ويقتل حتى الأبرياء الطيبين؟! . .

وأين نحن، وأين العالم من هذا «الفكر» الذى ينظر ويبرّر لهذا اللون من الإرهاب؟!

– إن المسلمين لم يكونوا هم الذين أبادوا شعوب الهنود الحمر . . . ودمروا حضاراتهم !

– وليسوا هم الذين استخدموا أسلحة الدمار الشامل – الذرية – فى إبادة المدنيين الأبرياء فى هيروشيما ونجازاكى باليابان سنة ١٩٤٥م !

– وليسوا هم الذين سمموا تربة الأرض . . . وأحرقوا الغابات . . . وأبادوا ثلاثة ملايين من البشر فى ڤيتنام !

– ولا هم الذين قتلوا قرابة المليونين من الشهداء فى الجزائر ! . .

– ولا هم الذين استخدموا اليورانيوم المنضب ، والقنابل العنقودية ، وسمموا البيئة ، وقتلوا عشرات الآلاف ، بل ودمروا حتى كنوز الآثار الحضارية النادرة والنفيسة فى العراق ! . .

– ولا هم الذين أبادوا سبعين مليونًا من البشر فى حربين استعماريتين عالميتين شهدهما القرن العشرون ! . .

– ولا هم الذين حولوا الكثير من بلاد الجنوب إلى مقابر للنفايات الذرية المدمرة والمهلكة للحياة ! . . . وجعلوا من حياة الأبرياء فى الجنوب . . . ومن زراعاتهم حقول تجارب ، ومصادر مكاسب للمبيدات الضارة . . . والأسمدة الفاسدة . . . والأدوية المنتهية الصلاحيات ! . .

لم يكن المسلمون – فى تاريخهم القديم والوسيط والحديث والمعاصر – هم الذين فعلوا ذلك ، ولا شيئًا من ذلك . .

ولو أن المسلمين قد أعدوا القوة التى أمرهم بها ربهم – سبحانه وتعالى – فى سورة الأنفال ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] . . . واتخذوا أسباب القوة والمنعة والعزة ، فأخافوا الطامعين فى ديارهم وثرواتهم ، لما حدث هذا الإرهاب ، الذى غدوا أولى ضحاياه فى هذا العالم الذى نعيش فيه . .

تلك هى حقيقة : الجهاد . . . والقتال . . . والإرهاب فى مصطلح العربية والقرآن والإسلام . . . وصدق الله العظيم :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

****

الهوامش:

(١) انظر : ابن القيم : (إعلام الموقعين عن رب العالمين) ج٤ ، ص٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ طبعة بيروت ١٩٧٣م . (والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) ص١٧-١٩ . تحقيق : د. جميل غازى . طبعة القاهرة ١٩٧٧م .

(٢) انظر فى ذلك -وأمثاله- كتابنا (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) ص٣-١٢ طبعة دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٤م

(٣) مكسيموس مونروند : (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب) المجلد الأول (ص٤١٣) ترجمة : **مكسيموس مظلوم** . طبعة أورشليم ١٨٦٥م- ولقد حافظنا على أسلوب الترجمة كما هو -رغم ركاكته .

(٤) المصدر السابق . المجلد الأول . ص١٧٢-١٧٣ .

(٥) سيجريد هونكه : (الله ليس كذلك) ص٢٢ . ترجمة : د. غريب محمد غريب . طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٥م .

(٦) د. توفيق الطويل : (قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام) ص٩٧-٩٨ . طبعة القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

(٧) المرجع السابق . ص٧٣ .

(٨) قارن ذلك بالقاعدة الإسلامية - التى أوردها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ ١٠٥٨-١١١١م) - فى كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص١٤٣ والتى تقول: «ينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ، والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم».

(٩) (قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام) ص٨١-٨٣ .

(١٠) مجمع اللغة العربية (معجم ألفاظ القرآن الكريم) (طبعة القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

(١١) انظر - على سبيل المثال- : الجرجانى (التعريفات) طبعة القاهرة ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م . والكفوى (الكليات) . تحقيق : د. عدنان درويش ، محمد المصرى . طبعة دمشق ١٩٨٢م .

(١٢) الراغب الأصفهانى : (المفردات فى غريب القرآن) طبعة القاهرة ١٩٩١م .

(١٣) (الله ليس كذلك) ص٤٠ ، وانظر كتابنا : (الإسلام فى عيون غربية) ص٣٢٥ ، طبعة دار الشروق - القاهرة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م .

(١٤) (الأعمال الكاملة) ج٥ ، ص ١٠٧ طبعة بيروت ١٩٧٢م .

(١٥) (الأعمال الكاملة) للإمام محمد عبده ، ج ٤ . ص٦٩٥-٦٩٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣م .

(١٦) انظر فى تفصيل ذلك كتابنا (الإسلام والحرب الدينية) ص٣٢-٣٩ . طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م .

(١٧) د. نصر حامد أبو زيد - مجلة (وجهات نظر) القاهرة - يناير ٢٠٠٢م . مقال «الإسلام والغرب : حرب الكراهية» .

(١٨) د. محمد حميد الله الحيدرآبادى - محقق - (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص١٦-٢١- طبعة القاهرة ١٩٥٦م .

(١٩) المصدر السابق . ص١١١ .

(٢٠) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ج٨ ، ص١١٤ ، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .

(٢١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص١٢٥ .

(٢٢) المصدر السابق . ص٣٢٦ .

(٢٣) المصدرالسابق . ص٣٢٨ .

(٢٤) المصدر السابق . ص٣٣٩ ، ٣٤٠ . وانظر كذلك : (تاريخ الطبرى) ج٤ ، ص ١٥٢- ١٥٥ . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة دار المعارف - القاهرة ١٩٧٠م .

(٢٥) أبو يوسف (كتاب الخراج) ص ١٣٨-١٣٩ . طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ. وانظر كذلك : البلاذرى (فتوح البلدان) ص١٨٩ . تحقيق : د. صلاح الدين المنجد . طبعة القاهرة ١٩٥٦م .

(٢٦) أبو عبيد القاسم بن سلام (كتاب الأموال) ص١٥٦، طبعة القاهرة ١٩٦٨م . أبو يوسف (كتاب الخراج) ص١٢٠ .

(٢٧) (تاريخ الطبرى) ج٤، ص١٥٦ .

(٢٨) يوحنا النقيوسى : (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى . رؤية قبطية للفتح الإسلامى) ص٢٠١ـ٢٠٢ . ترجمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة ٢٠٠٠م .

(٢٩) د. صبرى أبو الخير سليم : (تاريخ مصر فى العهد البيزنطى) ص٦٢، طبعة القاهرة ٢٠٠١م .

(٣٠) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى) ص ٢٢٠ .

(٣١) (الله ليس كذلك) ص٤٠-٤٣ .

(٣٢) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) دراسة منشورة بكتاب (تراث الإسلام) تصنيف أرنولد ـ ص٣٦٣- ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ١٩٧٢م .

(٣٣) صحيفة (الحياة) - لندن - فى ٢٩/ ٢/ ٢٠٠٣ .

(٣٤) صحيفة (الشرق الأوسط) ـ لندن ـ فى ٨/ ٣/ ٢٠٠٣م .

(٣٥) صحيفة (العربى) - القاهرة - فى ١٦ / ٣ / ٢٠٠٣م .

(٣٦) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن ـ فى ١٠ / ٣ / ٢٠٠٣ م .

(٣٧) صحيفة (الحياة) - لندن- فى ١٥ / ٣ / ٢٠٠٣م .

(٣٨) (نيوزويك) - الأمريكية- عدد ١١ / ٣ / ٢٠٠٣م .

(٣٩) (نيوزويك) - العدد السنوى- ديسمبر ٢٠٠١م - فبراير ٢٠٠٢م .

(٤٠) مجمع اللغة العربية : (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة ١٩٧٥م .

(٤١) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن- فى ٣ / ٢ / ٢٠٠٢م، وصحيفة (الحياة) - لندن- فى ٢٦ / ٢ / ٢٠٠٢م، وصحيفة (الأهرام) - القاهرة- فى ١١ / ١٢ / ٢٠٠٢م .

(٤٢) صحيفة (الأهرام) - القاهرة - فى ٣ / ٣ / ٢٠٠٣م والأهرام ينقل عن مقال : «زخارى كاربيل» فى «نيوزويك» الأمريكية - بتاريخ ١٤ / ١ / ٢٠٠٢ م .

(٤٣) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن- فى ١٤ / ٢ / ٢٠٠٢م .

(٤٤) من حديث لچاك بيرك فى ٢٧ / ٦ / ١٩٩٥م . انظر : حسونة المصباحى (العرب والإسلام فى نظر المستشرق الفرنسى چاك بيرك) صحيفة (الشرق الأوسط) -لندن- فى ١ / ١١ / ٢٠٠٠م .

(٤٥) إسرائيل شاحاك : (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ص١٣٤ -١٣٥ . ترجمة : حسن خضر . طبعة دار سينا - القاهرة ١٩٩٤م .

***

المصادر والمراجع

- **ابن القيم** : (إعلام الموقعين) طبعة بيروت ١٩٧٣م .

(الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) تحقيق : د. جميل غازى . طبعة القاهرة ١٩٧٧م .

- **أبو عبيد بن سلام** : (كتاب الأموال) طبعة القاهرة ١٩٦٨م .
- **أبو يوسف** : (كتاب الخراج) طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ .
- **إسرائيل شاحاك** : (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ترجمة : حسن خضر . طبعة القاهرة ١٩٩٤م .
- **د. توفيق الطويل** : (قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام) طبعة القاهرة ١٩٩١م .
- **الجرجانى - الشريف** : (التعريفات) طبعة القاهرة . ١٩٣٨م .
- **جيوم** : (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) - تصنيف أرنولد - ترجمة : جرجيس فتح الله - طبعة بيررت ١٩٧٢م .
- **الراغب الأصفهانى** : (المفردات فى غريب القرآن) طبعة القاهرة ١٩٩١م .
- **سيجريد هونكه** : (الله ليس كذلك) ترجمة : د. غريب محمد غريب . طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٥م .
- **د. صبرى سليم أبو الخير** : (تاريخ مصر فى العصر البيزنطى) طبعة القاهرة ٢٠٠١م .

• **الطبرى** : (تاريخ الطبرى) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٧٠م

• **الغزالى-أبو-حامد** : (الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة مكتبة صبيح - القاهرة- بدون تاريخ .

• **القرطبى** : (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة

• **الكفوى ـ أبو البقاء** : (الكليات) تحقيق : د. عدنان درويش، محمد المصرى . طبعة دمشق ١٩٨٢م .

• **مجمع للغة العربية ـ القاهرة** : (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة، ١٩٧٠م.

(معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة، ١٩٧٥م.

• **محمد حميد الله ـ محقق ـ** : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) طبعة القاهرة ١٩٥٦م .

• **محمد عبده ـ الإمام ـ** : (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣م .

• **د. محمد عمارة** : (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) طبعة دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٤م.

(الإسلام فى عيون غربية) طبعة دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٥م .

(الإسلام والحرب الدينية) طبعة مكتبة الشروق الدولية- القاهرة ٢٠٠٥م.

• **مكسيموس مونروند** : (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب) ترجمة مكسيموس مظلوم . طبعة أورشليم ١٨٦٥م .

• **د. نصر حامد أبو زيد** : مجلة (وجهات نظر) - القاهرة - عدد يناير ٢٠٠٢م .

• **يوحنا النقيوسى** : (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى) - حمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

* **دوريات**

* **(الأهرام)** ـ القاهرة ـ
* **(الحياة)** ـ لندن ـ
* **(الشرق الأوسط)** ـ لندن) ـ
* **(العربى)** ـ القاهرة ـ
* **(نيوزويك)** ـ أمريكا ـ

رقم الإيداع ٢٠٩٨٨ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1450-9

السماحة الإسلامية

• فى أول لقاء للدولة الإسلامية مع النصرانية.. كتب رسول الله ﷺ لأهلها عهداً جاء فيه: «لهم جوار الله وذمة رسوله.. أن أحرس دينهم بما أحفظ به نفسى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»..

• ولقد استمرت هذه السماحة سنة مرعية عبر تاريخ الإسلام. فالفتوحات الإسلامية حررت الأوطان.. والضمائر من القهر الرومانى والذى استمر عشرة قرون!.. حتى لقد اعتبرها المؤرخون النصارى «إنقاذاً للنصرانية.. وعقاباً إلهياً للرومان»!

• ولقد ظل «جهاز الدولة» بيد أهل البلاد.. حتى قال المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز»: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»!!

• والآن.. يهيمن الغرب على عالم الإسلام.. وينشر فيه قواعده العسكرية.. وينهب ثرواته الاقتصادية.. ويمارس تغريب الثقافة والتعليم.. ويجعل من الأقليات «فيتو» يصادر حق الأمة فى الاحتكام إلى خصوصياتها الدينية والثقافية..

• ومع كل ذلك.. يتحدثون عن «السماحة الغربية».. وعن «تعصب الإسلام»!!.. وهى القضية التى يصدر لمعالجتها هذا الكتاب؟

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

• إن خلط المفاهيم - مفاهيم: «الجهاد».. و«القتال».. و«الإرهاب» - إنما يعيد تمثيل قصة الذئب والحمل على مسرح الواقع الذى نعيش فيه !..

• فالغرب الاستعمارى، الذى يحتل الكثير من بلاد الإسلام.. ويمارس الإبادة ضد الكثير من الشعوب الإسلامية.. والذى يدمر البيئة.. ويحول بلادنا إلى مقابر للنفايات القاتلة.. والذى يدنس مقدساتنا.. ويعبث بمناهج تعليمنا.. ويحرم شعوبنا من حقها فى تقرير المصير... هذا الغرب الاستعمارى، هو الذى يتهم الإسلام وأمته بالإرهاب!!!..

• وإذا كان الوعى بحقائق «الفكر».. و«الواقع».. و«التاريخ».. هو جزء من العدة والعتاد فى هذه المعركة التى فرضها علينا مشروع الهيمنة الغربى.. ندفع فى هذه المعركة التى فرضها علينا مشروع الهيمنة الغربى.. ندفع بها الظلم عن إسلامنا وأمتنا.. ونكسب بها الأصدقاء - حتى فى البلاد الغربية.. ذاتها - فإن جلاء حقائق المفاهيم - مفاهيم: «الجهاد».. و«القتال».. و«الإرهاب» - إنما يمثل «معركة فكرية»، ميدانها صفحات هذا الكتاب.

6223002801787